

النفوذ لفساطمي في جزيرة العرب

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد

مدينة نصر ت : ٢٦١٩٠٤٩

٩٥٣,٠٧ محمد جمال الدين سرور.
م ج ن ف النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب / تأليف محمد جمال
الدين سرور . - القاهرة: دار الفكر العربي ، ١٩٩٣ .
١٢٣ ص : ٢٤ سم .
ببليوجرافية : ص [١٠٧] - ١١١ .
يشتمل على ثبت بالأعلام وآخر بالأسماء والأماكن .
١ - شبه الجزيرة العربية - تاريخ - العصر الفاطمي .
٢ - اليمن - تاريخ - العصر الفاطمي . ١ - العنوان .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذا كتاب يتناول ناحية من نواحي سياسة الفاطميين الخارجية، يتجلى لنا من ثناياها تطلّعهم إلى زعامة العالم الإسلامي التي كان العباسيون يحتفظون بها رغم ضعف سلطتهم بسبب استفحال نفوذ الأتراك وما تلا ذلك من انقسام دولتهم إلى دول مستقلة ومناطق نفوذ للعناصر التركية والفارسية والعربية.

وقد اشتد التنافس بين العباسيين والفاطميين على تقلد هذه الزعامة. وكان العباسيون يرون أنهم جديرون بها لأحقّيتهم بالخلافة الإسلامية، على حين تمسك الفاطميون بنظريتهم القائلة باغتصاب العباسيين الخلافة، ومن ثم لم يعترفوا بسلطتهم الدينية، وحرصوا على انتزاع زعامة العالم الإسلامي منهم، فمدوا سلطانهم على مصر والشام، كما وجهوا اهتمامهم إلى السيطرة على جزيرة العرب وعلى الأخص الأراضى المقدسة بها لأن امتلاكها أصبح له شأن كبير عن ذي قبل. ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة صار ينظر إليها منذ أواخر القرن الرابع الهجرى على أنها من مستلزمات الخلافة، وإن من يظفر بها يعتبر خليفة المسلمين الحقيقي.

وقد عنيت فى هذا الكتاب بدراسة الوسائل التي اتبعها الفاطميون

لنشر سلطانهم ببلاد الحجاز، فوضحت كيف ناهضوا نفوذ العباسيين في الأماكن المقدسة، وأقاموا الدعوة لهم بهذه الأماكن، وأصبحوا بفضل رعايتهم شئون مكة والمدينة وتأمينهم الوافدين إليهما موضع تقدير العالم الإسلامي.

كذلك تناولت بالبحث قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين وولاء أمرائها للفاطميين واتحادهم في سياستهم العدائية إزاء العباسيين، ثم تحدثت عن العوامل التي بدلت من صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة في أواخر القرن الرابع الهجري، وما تبع ذلك من ضعف السيادة الفاطمية ببلاد البحرين.

ولما كانت بلاد اليمن موطن الدعوة الفاطمية بجزيرة العرب، لذلك وجهت عنايتي إلى توضيح السياسة التي اتبعها الخلفاء الفاطميون للإبقاء على نفوذهم بهذه البلاد، كما بينت ما كان لتوثق عرى الصداقة بين هؤلاء الخلفاء وبعض أمراء اليمن من أثر في احتفاظ الفاطميين بمركز ممتاز في بلادهم.

أرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق فيما أنا بسبيله من خدمة تاريخ الإسلام والعرب.

محمد جمال الدين سرور

محتويات الكتاب

الفصل الأول

الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز

صفحة

٩	تمهيد. حالة جزيرة العرب قبل العصر الفاطمي
١٠	دولة بنى سليمان العلوية بمكة
١٣	العلويون في المدينة المنورة
١٤	تطلع الفاطميين إلى بسط سلطانهم على الأراضى المقدسة بالحجاز
١٥	إقامة الخطبة بمكة والمدينة للمعز لدين الله الفاطمي
١٦	عدم استقرار النفوذ الفاطمي بمكة والمدينة في عهد العزيز
١٧	موقف أمير مكة من الخليفة الحاكم بأمر الله
١٩	الهواشم يستقلون بإمارة مكة
٢٠	ضعف النفوذ الفاطمي بمكة في عهد المستنصر بالله الفاطمي
	التنافس بين العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على
٢٧	الأراضى المقدسة بالحجاز

الفصل الثاني

السيادة الفاطمية في بلاد البحرين

٣١	قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين
٣٤	ولاء قرامطة بلاد البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب
٣٩	النزاع بين أفراد أسرة القرامطة على العرش
٤٠	تبدل صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة
٤٦	ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية في اليمامة وعمان

صفحة	
٤٩	دولة بنى الأخيضر العلوية باليمامة
٥٠	دعاة الإسماعيلية ينشرون المذهب الإسماعيلي
٥٠	نفوذ القرامطة في اليمامة
٥١	القرامطة في عمان يقيمون الدعوة لعبيد الله المهدي
٥٣	محاولة البويهيين توطيد نفوذهم بعمان
٥٦	حرص الفاطميين على نشر دعوتهم بعمان
٦٠	انتشار الدعوة الفاطمية بعمان

الفصل الرابع

النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن

٦١	بلاد اليمن تحت حكم ولاة العباسيين
٦٢	انحلال الدولة الزيدية في بلاد اليمن
٦٢	الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن
٦٤	دعاة الإسماعيلية باليمن يرجون قيام دولة المهدي في بلادهم
٦٧	وقوع الخلاف بين داعيتي الإسماعيلية ابن حوشب وعلى بن الفضل
٦٨	ولاء ابن حوشب لعبيد الله المهدي
	عبد الله بن عباس الشاوري يخلف ابن حوشب في نشر الدعوة
٧٠	الفاطمية
٧٢	انصراف بعض دعاة الإسماعيلية عن الدعوة الفاطمية
٧٣	الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن في عهد المعز لدين الله الفاطمي
٧٤	إقامة الخطبة للعرير بالله الفاطمي
٧٥	على بن محمد الصليحي ينشر الدعوة الإسماعيلية باليمن

صفحة

- ٧٦ مقاومة دولة نجاح بزبيد دعاة الإسماعيلية
- ٧٧ الصليحي يقيم الدعوة للمستنصر بالله الفاطمي
- ٧٨ توثق عرى الصداقة بين المستنصر والصليحي
- ٨٠ ولاية المكرم أحمد الملك ببلاد اليمن
- ٨١ حرصه على توطيد علاقته بالمستنصر بالله الفاطمي
- ٨٢ الدعوة الفاطمية ببلاد اليمن بعد وفاة المكرم أحمد
- ٨٤ النزاع بين آل الصليحي وآل الزواحي
- ٨٧ السيدة الحرة الصليحية تدير شئون اليمن
- ٨٧ ولاء السيدة الحرة للمستنصر بالله الفاطمي
- ٨٨ تأييد السيدة الحرة خلافة المستعلي بالله
- ٨٩ الدعوة النزارية لا تلقى قبولا ببلاد اليمن
- ٩٥ معاونة الداعي على بن إبراهيم بن نجيب الدولة للسيدة الحرة
- ٩٧ ولاء السيدة الحرة للخليفة الأمر الفاطمي
- ٩٨ الخليفة الأمر يبشر السيدة الحرة بمولد ولي عهده الإمام الطيب
- ١٠٠ عدم اعتراف السيدة الحرة بإمامة الخليفة الحافظ
- ١٠١ حرص السيدة الحرة على نشر الدعوة للإمام الطيب
- ١٠٢ آل زريع بعدن يقيمون الدعوة للخليفة الحافظ
- ١٠٣ ضعف الدعوة الطيبية بعد وفاة السيدة الحرة
- ١٠٤ زوال نفوذ الفاطميين ببلاد اليمن

الفصل الأول

الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز

تمهيد

كان لقيام الخلافة في جزيرة العرب اثر كبير في وحدتها السياسية، فلما انتقل مركزها من المدينة المنورة إلى الكوفة، ثم إلى دمشق في عهد الأمويين، ثم إلى بغداد في عهد العباسيين تفككت عرى هذه الوحدة، وانقسمت جزيرة العرب إلى ولايات متفرقة وهي: بلاد الحجاز وبلاد البحرين واليمامة وعمان وبلاد اليمن.

لم يتمتع سكان هذه البلاد من العرب طويلا بمركز ممتاز في الدولة الإسلامية على الرغم مما بذلوه من جهد مشكور في نشر الدعوة الإسلامية وفي فتح الأراضي الخاضعة لنفوذ الفرس والروم؛ فقد أثارت سياسة الدولة الأموية القائمة على التعصب للعرب المسلمين من غير العرب؛ وانتهى الأمر بحدوث ذلك الانقلاب الذي أزال سلطان العرب وبعث النفوذ الفارسي الذي مثل دوره بشكل واضح منذ قيام الدولة العباسية حتى ولى المعتصم الخلافة، فساء ظنه بالفرس، ولم يعد أمامه بعد أن جفا العباسيون العرب إلا البحث عن عنصر جديد ليس له الأهواء السياسية التي للعرب وليست له المصالح الخاصة التي للفرس وهداه تفكيره إلى الاستعانة بالأتراك، فأكثر منهم وخصهم بالنفوذ وجعل لهم مركزاً في مجال السياسة والحرب، وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش، كما كتب إلى عماله في الولايات الإسلامية بإسقاط

أسمائهم من الدواوين وقطع العطاء عنهم، وبذلك حرم العرب من المرتبات المقررة لهم في ديوان العطاء.

لم يكن لدى العرب القوة التي يستطيعون بها استعادة سلطانهم لتفرق كلمتهم في الجزيرة العربية، فقد حرص كل فريق منهم على العمل لمصلحته دون سواه مما أدى إلى فشل قضيتهم التي كانوا يدافعون عنها وزادت حالتهم سوءاً في العصر العباسي الثاني لاستئثار الأتراك بالنفوذ والسلطان في الدولة الإسلامية.

كذلك كانت الأمور في جزيرة العرب غير مستقرة بسبب الفتن التي أثارها العلويون في بلاد الحجاز واليمن، أضف إلى ذلك ظهور القرامطة في بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامة وعمان. وكان لهذه الأحداث أسوأ الأثر في جزيرة العرب، فصارت في شبه عزلة، كما تأخرت مادياً وعلمياً.

كان العلويون في بلاد الحجاز كثيراً ما يثيرون الاضطرابات ضد العباسيين، فلما قضى خلفاء العصر العباسي الأول على حركاتهم ضعف أمرهم واستكانوا، وظل ولاة بني العباس يتولون الحكم في بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التي أثارها الأتراك في أواخر القرن الثالث الهجري، فاستغل هذه الفرصة بعض العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان من بني سليمان بن داود بن

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وعملوا على الاستقلال بإمارة مكة^(١)، وسرعان ما تغلبوا عليها وأسسوا بها دولة السليمانيين وخلع أميرهم طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة سنة ٢٠١ هـ في خلافة المقتدر^(٢)، وقال في خطبة له بموسم الحج: «الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لابنى أعمامه، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين»^(٣).

على أن دولة بنى سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع حماية الحجاج وصد المغيرين عليها، فقد هدها القرامطة في بلاد البحرين واستولوا عليها سنة ٢١٧ هـ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب؛ وعلى الرغم من ذلك كله فلم يقض على سيادة العباسيين على مكة إلا فترة قصيرة من الزمن، فقد شغل القرامطة عنها بالعمل على تحقيق أطماعهم في بلاد الشرق مما ساعد على عودة نفوذ العباسيين إلى مكة. فأقيمت الخطبة فيها للراضى بن المقتدر سنة ٢٢٧ هـ^(٤)، بل إن هذا الخليفة أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الأخشيدي وإلى مصر من قبله، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده، فضم الحجاز إلى محمد الأخشيدي^(٥)، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسي على منابر مكة والمدينة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٤ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٩.

(٤) ابن خلدون: ج ٤ ص ١.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك

مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٢.

وقد نوه محمد الأخشيد بتقلده مكة والمدينة في الكتاب الذي أرسله إلى رومانوس أمبراطور الروم. وكان هذا الامبراطور قد بعث إليه كتابا قال فيه: إنه لم تكن عادته أن ي كاتب إلا الخليفة والتمس تبادل الأسرى. فكتب إليه محمد الأخشيد كتابا أشار فيه إلى المكانة السامية التي يتمتع بها مدلا على ذلك بالبلاد التي في حوزته؛ وبعد أن ذكر أن منها مصر وبلاد الشام قال: «هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حدث من الفضل توفى على كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وإرثه ومهاجره ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام. ومنها مدينة رسول الله ﷺ المقدسة بتربيته وأنها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر والسهل والوعر والشرق والغرب وصحارى العرب على بعد أطرافها وتنازع أقطارها وكثرة سكانها في حاضرتها وباديته، وعظمها في وفودها وشدتها، وصدق بأسها ونجدتها، وكبر أحلامها وبعد مرامها. وانعقاد النصر من عند الله براياتها، وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها..»

ظلت سياسة العباسيين قائمة بمكة بعد أن تقلد ولايتها الأخشيديون في مصر؛ فلما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ شاركوهم هذه السيادة، فأقيمت الخطبة بمكة للمطيع العباسي مع معز الدولة بن بويه، ثم عمل البويهيون على ألا يكون للأخشيديين نفوذ في الأراضى المقدسة

ببلاد الحجاز، وقام الخلاف سنة ٢٤٢هـ بين أمير الحج المصرى وأمير الحج العراقى على الخطبة لابن بويه أو ابن الأخشيد؛ وتطور النزاع إلى نشوب الحرب بين أنصار كل منهما؛ فلما انهزم المصريون أقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه^(١). على أن ذلك لم يقض نهائياً على نفوذ الأخشيديين بمكة؛ فقد ولى الخليفة المطيع كافور الأخشى بلاد الحجاز بالإضافة إلى مصر والشام، وصار يدعى له بمقتضى هذه التولية على منابر هذه البلاد مع الخليفة العباسى^(٢). ثم دعى بعد وفاته للحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشى^(٣).

لم يكن اهتمام العباسيين ببسط سلطانهم على المدينة المنورة أقل من حرصهم على الاحتفاظ بسيادتهم على مكة. وكان العلويون قد اتخذوا المدينة مركزاً لإثارة الفتن فى وجه الخلافة العباسية مما حمل بعض الخلفاء على إسناد ولايتها إلى وال مستقل عن والى الحجاز حتى يتفرغ للعمل على استقرار الأمور فيها والقضاء على ثورات العلويين. ولما تقلد الأخشيديون بلاد الحجاز دخلت المدينة فى حوزتهم، فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها.

كان يقيم بالمدينة بعض أفراد من بنى الحسين بن على بن أبى طالب، أخذوا يتحينون الفرص للاستقلال بولايتها كما فعل بنو سليمان بمكة، لكنهم لم يكن لديهم القوة التى تساعدهم على تحقيق أغراضهم؛ فلما قدم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٠.

(٢) أبو الفداء : ج ٢ ص ١٠٧ ، المقرئى خطط ج ١ ص ٣٣٠.

(٣) أبو المحاسن . ج ٤ ص ٩ - ١٠.

عليهم من مصر طاهر بن مسلم^(١) من أحفاد الحسين ولوه أميراً عليهم، وما لبث طاهر أن استقل بإمارة المدينة سنة ٢٦٠ هـ^(٢). ولم تقم الخلافة العباسية بأى محاولة للوقوف في وجهه بسبب ما أصابها من ضعف.

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على كل من مكة والمدينة لا ينازعهم فيها منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم في إفريقية وأخذوا يعملون على توسيع رقعة دولتهم وذلك باستيلائهم على مصر والشام؛ فلما تم لهم فتح هذه البلاد وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضى المقدسة بالحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية. ولم يدر بخاطر العباسيين بعد أن تقلدوا زمام الحكم أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر في وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم في الخلافة؛ فلما طمع الفاطميون في السيطرة على هاتين المدينتين، ظهرت من ثنايا النزاع بينهم وبين العباسيين على امتلاك الأراضى المقدسة بالحجاز نظرية جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكي والمدنى.

وكان العلويون في هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى أخيراً فيفوز بالغنيمة؛ فاستقل أمراء الأشراف من بنى الحسن

(١) كان مسلم يدبر أمر مصر أيام كافور واسمه محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى المحدث ابن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٩).

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢

بمكة، كما استقل بالمدينة أمراء الأشراف من بنى الحسين وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين^(١).

بدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمي، فقد رأى هذا الخليفة على أثر ما بلغه من وقوع نزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب أن يعمل على حسم الخلاف بينهم؛ فأنفذ إليهم سرّاً مالا ورجالا سعوا بين هذين الفريقين حتى عقدوا بينهم صلحاً فى المسجد الحرام، وقام رسل الخليفة الفاطمي بأداء دية قتل بنى الحسن سنة ٣٤٨هـ مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم، ولما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨هـ، بادر حسن بن جعفر الحسنى فاستولى على مكة ودعا للمعز على منابرهما، فبعث إليه المعز من المغرب بتقليده الحرم وأعماله^(٢).

كذلك أقيمت الخطبة للمعز بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة فى كل من مكة والمدينة^(٣)، وعمل المعز على تثبيت سلطته على هاتين المدينتين بالأموال التى صار يرسلها إليها؛ فقد أنفذ سنة ٣٥٩هـ - كما قال المقرئى^(٤) - «عسكرا وأحمال مال عدتها عشرون حملاً للحرمين وعدة أحمال متاع» - وبذلك تيسر له نشر نفوذ الفاطميين فى بلاد الحجاز.

ظلت الخطبة تقام للمعز فى كل من مكة والمدينة حتى توفى سنة ٢٦٥هـ.

(١) متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج٢ ص ٥ - ٦.

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) عبد القادر الأنصارى: درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٢.

(٤) اتعاظ الحنفا ص ١٧٢.

وخلفه ابنه العزيز، فانقطعت الخطبة له في بلاد الحجاز؛ فبعث إليها سنة ٣٦٧هـ بإدريس بن زيري الصنهاجي أميراً على الحج. فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة^(١)، على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقراً في مكة والمدينة طوال عهد العزيز. فقد دعا أمير حاج العراق لعضد الدولة بن بويه، واضطر العزيز سنة ٣٨٠هـ إلى إرسال حملة إلى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة، وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين^(٢).

ظل طاهر بن مسلم الذي يعد أول أمير من بني الحسين استقل بالمدينة موالياً للفاطميين حتى توفي سنة ٣٨١هـ، فخلفه في إمارتها ابنه الحسن بن طاهر ويلقب مهني^(٣)، فسار على نهج أبيه في اعترافه بسيادة الفاطميين على المدينة. أما إمارة مكة فكان يليها في ذلك الوقت عيسى بن جعفر من بني الحسن. ولما توفي سنة ٣٨٤هـ خلفه أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر. وقد أقام كل منهما الخطبة للفاطميين اعترافاً بما لهم من نفوذ على مكة.

وكان الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر في بداية عهده مخلصاً في ولائه للفاطميين، فقد طلب منه الخليفة القادر بالله العباسي الدخول في طاعته وأغراه بالمال والخلع التي بعثها إليه، كما وعده بالعمل على إبقاء الحكم في مكة وراثياً لبنيه من بعده، لكنه رغم ذلك أبى تحقيق رغبة الخليفة العباسي وبعث إليه بأن الخطبة في مكة تقام للخليفة الحاكم بأمر الله دون

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٠١.

(٢) ابن خلدون؛ ج ٤ ص ١٠١ عبد القادر الأنصاري؛ درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٣.

(٣) ابن خلدون؛ ج ٤ ص ١٠٩.

سواه^(١)، كما أبقي للفاطميين سيادتهم على المدينة بأن سار إليها سنة ٢٩٠ هـ وأزال عنها إمرة بنى مهنى حين بلغه طعنهم فى نسب الفاطميين، لكنه لم يحتفظ طويلاً بإمارة المدينة، فقد استعادها بنو مهنى بعد عودته إلى مكة ودخلوا منذ ذلك الوقت فى طاعة الفاطميين.

على أن أبا الفتوح أمير مكة لم يستمر على ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، فقد خرج عليه سنة ٤٠٠ هـ، الذى أغراه الوزير أبو القاسم حسين بن على بن المغربى بانتحال لقب الخلافة - وكان هذا الوزير ناقماً على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه - لذلك عول على إضعاف شأنه، ففر من مصر إلى حسان بن مفرج ابن الجراح أمير طيى بالرملة وحسن له خلع طاعة الحاكم، فاستجاب له وعهد إليه بالتوجه إلى أبى الفتوح أمير مكة ليفسده على الحاكم ويدعوه إلى الخلافة، فلما قدم الوزير أبو القاسم بن المغربى مكة أطمع أبا الفتوح فى الرياسة وحرضه على طلب الخلافة، كما حثه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته، فرحب أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وأخذ ابن المغربى يدعو القبائل العربية من سليم وملال وعوف بن عامر لمعونة أبى الفتوح، ثم سار من مكة قاصداً الرملة وبصحبه أبو الفتوح والعرب الذين أجابوا دعوته؛ فلما اقترب أبو الفتوح من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له

(١) عبد القادر الأنصارى: درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) المقرئى: خطط ج ٢ ص ١٥٧.

وبايعوه بالخلافة ثم ساروا في ركابه، ونزل أبو الفتوح في دار حسان ونادى في الناس بالأمان وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام^(١).

لما وصل إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي نبأ خروج أبي الفتوح عليه وانتحاله لقب الخلافة وانحياز حسان بن مفرج بن الجراح والوزير أبي القاسم بن المغربي إليه استاء من ذلك وعول على إعادة نفوذه في بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبي الفتوح، فكتب إلى أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح بتوليته الحرمين وأنفذ له ولشيوخ بني الحسن مالا لخدلان أبي الفتوح، كما تعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار عيناً ولكل فرد من إخوته سوى الهدايا والثياب التي بعثها إليهم، فانصرفوا عن أبي الفتوح ودخلوا في طاعة الحاكم.

كذلك عمل الخليفة الفاطمي على استمالة حسان وأبيه مفرج بن الجراح وغيرهما بالأموال التي بذلها، فانصرفوا عن أبي الفتوح، ولما أحس أبو الفتوح بخذلان بني الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، ركب إلى الوزير أبي القاسم بن المغربي وقال له: «أنت أوقعتنى وأخرجتنى من بلدى وجعلتنى فى أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعوننى بيعاً بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى، وتسهل طرقى بالعودة إلى الحجاز، فإننى راض من الغنيمة بالإياب». ثم ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بخبر أولاده وموقفهم إزاءه وقال له: «أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولا تخرجنى» فبعث معه جماعة من طيئ ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ،

(١) عبد القادر الأنصارى: درر الغرائد المنظمة ج ١ ص ٢٠٧-٢٠٨.

فتلقاه أتباعه وكاتب الحاكم واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأعادته إلى إمارته بمكة^(١). وعمل أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم، كما نقش اسمه على السكة^(٢).

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بعد عودته إلى إمارة مكة الخروج على طاعة الفاطميين، بل احتفظ بسيادتهم في هذا البلد المقدس، وصار يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي؛ فلما توفي هذا الخليفة خطب لابنه الظاهر، كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧هـ. وظل أبو الفتوح موالياً للفاطميين حتى توفي سنة ٤٣٠هـ، وخلفه ابنه شكر الذي تمكن من بسط نفوذه على المدينة وأقام الدعوة للمستنصر في الحرمين واستمر الحال على ذلك حتى توفي سنة ٤٥٣هـ^(٣).

لم ينجب شكر بن أبي الفتوح الحسنى أولاداً يتولون إمارة مكة من بعده، فزال بوفاته نفوذ بني سليمان بمكة وتقلد الحكم فيها رجل ليس من بيت الإمارة. وكان رئيس الهواشم إذ ذاك محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد قد عظم ذكره بين قومه، فحارب بني سليمان بمكة سنة ٤٥٤هـ وأوقع بهم الهزيمة، وأخرجهم من الحجاز، فساروا إلى اليمن واستقل بإمارة مكة وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي^(٤).

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٤٧٤، عبد القادر الأنصاري: درر الفرائد المنظمة ص ٣٠٨.

(٢) المقرئى خطط ج ٢ ص ٢٨٨.

(٣) دحلان: خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام ص ١٨، ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٢.

(٤) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢٢.

لم يعمل الأمير محمد بن جعفر على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، فبدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، ثم مالبت أن انحرف عنه وأمر بذكر اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسي^(١). فلما علم بذلك المستنصر عهد إلى علي بن محمد الصليحي داعيه باليمن سنة ٤٥٥ هـ بإرسال حملة إلى مكة لاستعادة نفوذه عليها وللقضاء على الدعوة العباسية فيها^(٢). فسار الصليحي إلى مكة وعمل على استمالة أهلها إلى جانبه بما كان معه من الأموال^(٣)، وتعاون مع أمير مكة في نشر الأمن والطمأنينة في هذا البلد المقدس؛ فطابت قلوب الناس ورخصت الأسعار، وكسا الصليحي البيت الحرام بثياب بيض^(٤).

على أن الأمير محمد بن جعفر لم يستمر طويلاً في إقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، فإنه لما انقطع ما كان يرد إليه من مصر من الأموال بسبب الشدة العظمى التي حلت بالبلاد المصرية وأصبح في حاجة إلى المال. أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصنادير أموال أهل مكة وأمر بحذف اسم المستنصر من الخطبة، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي^(٥)، وبعث إلى السلطان ألب أرسلان

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥.

Bulletin School of Oriental Studies.

(٣)

(Letters of Al-Mustanoir Billah, Part V11. 1934 P.324).

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، أبو المحاسن: ج ٥ ص ٧٢.

(٥) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. القسم الثاني المجلد الأول ورقة ١٢١ ب.

السلجوقي حاكم بغداد رسولا سنة ٤٦٢ هـ يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان بمكة وإسقاط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وتركه الأذان بحى على خير العمل؛ فبعث إليه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار وقال: «إذا فعل أمير المدينة مهني كذلك أعطيته عشرين ألف دينار وكل سنة خمسة آلاف دينار»^(١).

على أنه يظهر لنا مما ذكره أبو المحاسن^(٢) أن أمير مكة رغم قيامه بالدعوة للخليفة العباسي أبقى الأذان بحى على خير العمل وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعي التي كانت سائدة إذ ذاك في الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين، فقد أرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٤ هـ الشريف أبا الطالب الحسن بمال وخلع وطلب منه هذا الرسول أن يلغى الأذان الشيعي في مكة، فناظره الأمير مناظرة طويلة وقال له «هذا أذان أمير المؤمنين على بن أبي طالب، فقال له أخو الشريف أبو طالب: ما صح عنه، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب روى أنه أذن به في بعض أسفاره وما أنت وابن عمر، فأسقطه من الأذان».

كان الأمير محمد بن جعفر يتطلع إلى ضم المدينة المنورة إلى حوزته ليكون صاحب السيادة على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز فلما أمن جانب الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بعد أن أقام لهما الخطبة في مكة، وشغل عنه الخليفة الفاطمي بالعمل على استقرار الأمور

(١) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٢١، أبو المحاسن ج ٥ ص ٨٤.

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٥ ص ٨٩.

في مصر، أعد جيشاً من الأتراك وزحف به إلى المدينة، فتغلب على بنى مهنى من بنى الحسين الذين كانت إليهم الرياسة بها وأخرجهم منها وأزال بذلك إمارتهم بالمدينة وجمع بين الحرمين^(١).

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد بن جعفر كان يرمى من وراء انحيازه إلى الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي العمل على توطيد سلطانه في بلاد الحجاز، فيقيم الدعوة للخليفة الذي يمدّه بالأموال، لذلك نراه حين توفي الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ، وانقطع ما كان يصل إليه من المال قطع الخطبة للعباسيين وأقامها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي^(٢). فلما أرسل إليه المقتدى بأمر الله العباسي الأموال أحل اسمه في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي وظلت الخطبة تقام للعباسيين في مكة والمدينة إلى أن توفي الخليفة المقتدى سنة ٤٨٧ هـ^(٣).

لم يعمل محمد بن جعفر أمير مكة طيلة عهد إمارته على تنظيم الأمور في الأراضى المقدسة وإقرار الأمن بها على الرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحياناً ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى، بل أساء السيرة فيها وأصبح الحجاج في أواخر أيامه غير آمنين على أنفسهم^(٤).

كذلك لم يبد من هذا الأمير ما يشعر برغبته في الاستقلال عن

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠.

(٢) أبو المعاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٩٧.

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٣، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠.

(٤) ابن الأثير: ج ١ ص ٨٢.

الخلافة العباسية أو الفاطمية، بل دان لكل منها بالطاعة فى فترات متقاربة حتى وصفه أبو المحاسن^(١) بأنه كان «متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين (الفاطميين)».

وقد ظفر العباسيون بحظ وافر من السيادة على مكة فى عهد إمارة محمد بن جعفر بخلاف الفاطميين الذين شغلوا إذ ذاك بالعمل على توطيد سلطتهم فى مصر عن الاحتفاظ بسيادتهم فى الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز، وبذلك ظلت الدعوة العباسية قائمة فى مكة حتى توفى الأمير محمد بن جعفر سنة ٤٨٧هـ، وخلفه ابنه الأمير قاسم الذى حذا حذو أبيه فى إقامة الخطبة للعباسيين، وأرسل إليه الخليفة المستظهر وابنه المسترشد العباسى الخلع والأموال^(٢).

لم تنعم مكة فى عهد الأمير قاسم بالهدوء والاستقرار، بل كانت الأحوال فيها مضطربة طوال المدة التى قضاها أميراً عليها وتبلغ ثلاثين سنة^(٣). مما يثبت لنا عجز هذا الأمير عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شئون إمارته.

لما توفى الأمير قاسم بن محمد بن جعفر الحسنى سنة ٥١٨هـ، خلفه ابنه فليته، فافتتح عهده بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد وعمل على نشر العدل بين أهالى إمارته مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم؛ فأثنوا عليه وتمتعوا فى عهده بالرخاء والطمأنينة، كما حرص هذا الأمير

(١) النجوم الزاهرة: ج ٥ ص ١٤٠.

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ٢٠٥.

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٤.

على إظهار ولائه للخليفة العباسي المسترشد حتى توفي سنة ٥٢٧هـ، وولى إمارة مكة من بعده ابنه هاشم^(١)، فلم يعمل على استمرار ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة، بل أقام الخطبة للخليفة الحافظ الفاطمي، مما أثار السيدة الحرة الصليحية صاحبة اليمن - وكانت إذاك تقيم الدعوة للإمام الطيب بن الخليفة الأمر الفاطمي - ولم تعترف بخلافة الحافظ الذي لم يكن يتمتع بصفة الإمامة التي يجب توافرها في الخلفاء الفاطميين^(٢) فأرسلت إلى هاشم أمير مكة تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة للحافظ، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ٥٢٣هـ. فكفاه الله شرها^(٣).

على أن الدعوة لبنى العباس لم تقطع نهائيا في عهد الأمير هاشم، بل أقيمت في أيامه الخطبة للخليفة المقتفى، كما أن ابنه قاسم الذي آلت إليه إمارة مكة سنة ٥٤٩هـ حرص على ذكر اسم الخليفة المستنجد بالله العباسي في الخطبة وحاول في نفس الوقت التقرب إلى الخلافة الفاطمية في مصر، فأوفد الشاعر عمارة اليمني برسالة إلى القاهرة سنة ٥٥٤هـ

(١) راجع ماورد عن ولاية مكة من الهواشم العلويين في:

(Zambaur, Manuel de Genealogie et de chronologie pour L' Histoire de L'Islam p.21).

(٢) كان الخليفة الأمر الفاطمي قد أنجب ولدا سماه أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فلما قتل الخليفة بعد ذلك ببضعة أشهر سنة ٥٢٤هـ أخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الذي لقب بالحافظ لدين الله أمر الإمام الطيب، وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلا لطفل مرتقب؛ غير أن الوزير أبا علي أحمد بن الأفضل ما لبث أن اعتقله، فظل في سجنه إلى أن تأمر الإسماعيلية على اغتيال هذا الوزير في المحرم سنة ٥٢٦هـ، وأخرجوا الحافظ من سجنه.

ابن ميسر: أخبار مصر ص ٧٢، ٧٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٤.

وكان الخليفة الفاطمي إذ ذاك الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك، فادى عمارة الرسالة ونظم قصيدة فى مدح الخليفة والوزير، نوه فيها بقدومه سفيراً من مكة المكرمة إلى القاهرة، ومن هذه القصيدة ننقل الأبيات الآتية^(١):

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم
قربن بعد مزار العز من نظرى حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم
لم يمكث عمارة اليمنى طويلاً فى مصر بعد أن تلقاه كل من
الخليفة والوزير الفاطمي بالعطف والقبول، فسرعان ما عاد إلى مكة
ومنها توجه إلى زبيد^(٢) فى صفر سنة ٥٥١ هـ، ثم رحل منها إلى بلاد
الحجاز حيث أدى فريضة الحج وأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى إلى
الملك الصالح طلائع بن رزيك يعتذر فيها عن الأحداث التى ارتكبها
جنده مع حجاج مصر والشام مع تعديهم عليهم وأخذهم أموالاً منهم،
فقدم عمارة للمرة الثانية إلى القاهرة حاملاً رسالة أمير الحرمين واتخذ
مصر موطناً^(٣)، وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي فى عهد
الخليفتين الفائز والعاقد^(٤).

على أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧٥-٤٨٦.

(٢) زبيد: مدينة من تهائم اليمن. القلقشندي. صبح الأعشى ج ٥ ص ٩.

(٣) عمارة اليمنى: النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٤١. ٢١-٤٢.

(٤) حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر (حاشية رقم ١ ص ١٧٤).

الفاطمي الفائز ووزيره طلائع بن رزيك وإن دلتا على حرص هذا الأمير على اكتساب رضا الخلافة الفاطمية، فإنهما لم تؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمي محل النفوذ العباسي، فقد ظلت الخطبة تقام في الحرمين للخليفة المستنجد بالله العباسي حتى توفي الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦ هـ وولى بعده الأمير عيسى بن فليته الذي زالت في عهده دولة الفاطميين في مصر^(١).

ومما لا شك فيه أن عدم استقرار الأمور في مصر في العصر الفاطمي الثاني الذي تجلى فيه ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع الخلافة العباسية في ذلك الوقت رغم ما كانت تعانيه من جراء ازدياد نفوذ السلاجقة على نشر نفوذهم في كل من مكة والمدينة.

على أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم في العصر الفاطمي الثاني لم ينصرفوا انصرافاً عن نشر الدعوة لهم في بلاد الحجاز، بل إنهم رغم انكماش دولتهم في هذا العصر حتى لم يبق في حوزتهم غير مصر، فإنهم احتفظوا ببعض النفوذ في الجزيرة العربية، ويرجع الفضل في ذلك إلى الدعوة الشيعية التي استمرت دون توقف على يد الدعاة الفاطميين^(٢).

وعلى الرغم من أن ولاية مكة والمدينة أقاموا في فترات مختلفة الدعوة لبنى العباس، فإنهم لم ينحازوا إلى الخلفاء العباسيين في مناهضة الخلافة الفاطمية، بل حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين كلما أمكنتهم الفرص، وما ذلك إلا بتأثير الدعوة الشيعية التي بذل الدعاة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١.

(٢) Stanley Lance-Pole. A History of fEgypt in the middle ages pp. 117-118,123 (٢)

الفاطميون في نشرها عناية كبيرة، كما أن الخلفاء الفاطميين من ناحيتهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم في نشر الأمن والطمأنينة في الأراضى المقدسة بالحجاز لتيسير سبل المعيشة على أهلها بما كانوا يرسلونه إليهم من الحبوب والأموال. لذلك لا نعجب إذا علمنا أن إقامة الخطبة للخلفاء الفاطميين لم تلق اعتراضاً من هؤلاء الأهالي الذين عرفوا بميلهم إلى المذهب السني، كما أن أمراءهم احتفظوا في كل من مكة والمدينة بكثير من مظاهر المذهب الشيعي التي كانت سائدة في مصر في العصر الفاطمي، وفضلاً عن ذلك فإن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوي كان له أثر كبير في حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين واكتساب رضائهم رغم المحاولات التي بذلها الخلفاء العباسيون لاستمالتهم إليهم وصرفهم عن الخلافة الفاطمية في مصر.

وعلى الرغم من حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز، فإن التنافس بينهم لتحقيق هذه الغاية لم يقرن بمظاهر العنف، بل وجه كل منهم اهتمامه إلى إقامة الدعوة له في تلك الأراضى بالطرق السلمية، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن العباسيين والفاطميين رأوا ألا يتخذوا من الأراضى المقدسة بالحجاز ميداناً لإظهار ما بينهم من عداوة وبغضاء.

وقد رأى هؤلاء الخلفاء تحت تأثير الصعوبات التي واجهوها في دولهم الاكتفاء بنشر سلطتهم الدينية في بلاد الحجاز التي كانت تتمثل في إقامة الخطبة لهم على منابرها، وكانوا يرجون من وراء تمتعهم بهذه السلطة توطيد أركان خلافتهم واستمالة العالم الإسلامي إلى جانبهم بعد أن

أصبح المسلمون ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى الخلفاء الذين يحتفظون بسيادتهم على الأراضي المقدسة ببلاد الحجاز.

وكانت سياسة الخلفاء الفاطميين موجهة بصفة خاصة إلى بسط سلطانهم على تلك الأراضي والقضاء على نفوذ العباسيين فيها ليثبتوا للعالم الإسلامي شرعية خلافتهم وأحقيتهم - تبعاً لذلك - في رعاية الأراضي المقدسة.

ولاشك أن حرص الفاطميين على نشر نفوذهم في بلاد الحجاز ونجاحهم في هذا السبيل وإن جر عليهم منافسة العباسيين لهم، فإنهم جنوا من ورائه احترام العالم الإسلامي وتقديره، فقد برهنوا على قدرتهم على درء الأخطار عن تلك البلاد بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضي المقدسة وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

ولم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التي تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفي لسد حاجة أهلها؛ لذلك رأوا أنه من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ماداموا يرعون حقوقهم في الإمارة، ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال، غير أنه يؤخذ على هؤلاء الأمراء أنهم كانوا يؤثرون مصلحتهم الخاصة على مصلحة البلاد التي يتولون الإمارة عليها، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين على السيادة على بلاد الحجاز لإشباع مطامعهم، وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون إمدادهم بالأموال، ولا يعنون بإدخال ضروب الإصلاح في بلادهم مما أدى إلى

إضعاف شأنها وتأخيرها مادياً وعلمياً حتى إن المقدسى^(١) لما زار بلاد الحجاز في القرن الرابع الهجري وصفها بالفقر وقلة العلم^(٢)، كما إن الرحالة الفارسي ناصر خسرو لاحظ حين زيارته مكة في القرن الخامس الهجري قلة سكانها، وقدّر عددهم بألفين، وقال إن فريقاً من أهلها اضطروا إلى الرحيل عنها فراراً من المجاعات^(٣).

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٠٢.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام ص ٣١٣.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٢٢٦-٢٢٧.

أمراء مكة الأشراف^(١)

السليمانيون والهواشم

(من منتصف القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجري)

٣٥٦هـ	أبو محمد جعفر بن محمد بن حسين بن محمد النائر
٣٥٨هـ	حسن بن جعفر الحسنى ^(٢)
٣٧٠هـ	عيسى بن أبى محمد جعفر
٣٨٠هـ	أبو الفتوح الحسن بن أبى محمد جعفر
٤٠١هـ	أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن عبد الله بن داود
٤٠٣هـ	أبو الفتوح الحسن (المرّة الثانية)
٤٣٠هـ	محمد شكر بن أبى الفتوح الحسن
٤٥٣هـ	حمزة وحّاش بن أبى الطيب داود
٤٦١هـ	أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد (تاج المولى)
٤٨٧هـ	أبو فليته القاسم بن محمد بن جعفر
٥١٨هـ	فليته بن القاسم بن محمد بن محمد بن جعفر
٥٢٧هـ	هاشم بن فليته بن القاسم
٥٤٩هـ	القاسم بن هاشم بن فليته
٥٥٦هـ	عيسى بن فليته بن القاسم
٥٧٠هـ	داود بن عيسى بن فليته
٥٧١هـ	مكثّر بن عيسى بن فليته
٥٧٢هـ	داود بن عيسى (المرّة الثانية)

(١) Zambaur, Manuel de Genealogie et de chronologie pour L' Histoire de L'Islamp.21

(٢) دعا للمعز بمكة سنة ٣٥٨هـ. انظر المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ١٤٦.

الفصل الثاني

السيادة الفاطمية في بلاد البحرين

كان نفوذ العباسيين في جزيرة العرب مهدداً من ناحية القرامطة^(١) الذي نجحوا في اقتطاع بلاد البحرين حيث كان أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي^(٢) أحد قوادهم يعمل على نشر دعوتهم بهذا الإقليم منذ سنة ٢٨٢ هـ. وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيباً لدى الأهالي وعلى الأخص الأعراب الذين كانوا دائماً على استعداد للانضمام إلى أي حركة ثورية ضد العرب أو غيرهم مادامت تتيح لهم فرصة للسلب والنهب^(٣)

(١) القرامطة: طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحاً للوصول إلى ماتصبو إليه؛ وقد عرفت بذلك نسبة إلى أحد دعايتها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال أنه سمي قرمط لقصر قامته ورجليه.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٢ ورقة ٥٦

ويرى Lvanow في كتابه (The rise of the Fatimids P:69) أن دكرامته كلمة معروفة عند أهالي بلاد العراق الجنوبية لم تستعمل في العربية ومعناها الفلاح أو القروي ثم عريت إلى قرمط؛ وإن حمدان بن الأشعث عرف بهذا الاسم وسمى أتباعه باسمه.

(عبد العزيز الدوري: دراسات في العصر العباسي الثاني ص ١٥٨)

(٢) الجنابي: نسبة إلى جنابة وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي (ياقوت: معجم البلدان جـ ٢

ص ١٤٢-١٤٣)

(٣) De Lacy O'Leary. A short History of the Fatimid Khalif ate (٣)

وقد تمكن أبو سعيد الجنابي من الاستيلاء على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة الأحساء^(١) عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي أسسها سنة ٢٧٦هـ. وكان لهذه الدولة شأن كبير في جزيرة العرب، فقد استطاعت أن تبسط نفوذها على كثير من أرجائها، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية في بيت أبي سعيد يعاونها مجلس يتكون من اثني عشر عضواً. وكان الحاكم هو القائد الأعلى للجيش وبيده كافة مقاليد الأمور، وله سلطة مطلقة. وكان العبيد يقومون بفلاحة أراضيها. أما سكانها من العرب فلم يكن لهم عمل سوى الخدمة في الجيش^(٢).

وقد وضع أبو سعيد نظاماً حربياً دقيقاً يستطيع بمقتضاه إعداد جيش قوى من رعاياه، فصار يجمع الأطفال في دور خاصة وعين لهم قوماً يشرفون على مصالحهم وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، وأخذ يدرّبهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية، فنشأ نشأة عسكرية^(٣).

كان أبو سعيد يطمع في بسط سيادته على جزيرة العرب وسلخها عن الدولة العباسية، وقد أثارت مطامعه مخاوف الخليفة العباسي المعتضد فأرسل إليه جيشاً بقيادة العباس بن عمرو الغنوي بعد أن ولاه على الإمامة والبحرين سنة ٢٨٩هـ، فلقى هذا الجيش هزيمة فادحة ووقع العباس

(١) عرفت بهذا الاسم لما فيها من أحساء المياه في الرمال ومراعى الإبل (ابن خلدون: ج٤ ص ٩١)

(٢) Encyclopaedia of Religion S Ethics, Vol III p.225

(٣) المقرئ: اتعاظ الحنفا ص ٢١٦

فى الأسر، وما لبث أن أطلق أبو سعيد سراحه وطلب منه أن يبلغ المعتضد هذه الرسالة؛ ومما جاء فيها: «هذا بلد خارج عن يدك غلبت عليه وقمت به، وكان فى من الفضل ما آخذ به غيره، فما عرضت لما كان فى يدك، ولا هممت به، ولا أخفت لك سبيلا، ولانلت أحداً من رعيتك بسوء؛ فتوجيهك إلى الجيوش لأى سبب؟ اعلم أنى لا أخرج عن هذا البلد ولا توصل إليه، وفى هذه العصابة التى معى روح، فاكفنى نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة، ولاتصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر^(١)»

فلما وقف المعتضد على ماتضمنه حديث أبى سعيد قال: «صدق ما أخذت شيئاً كان فى أيدينا»، ثم أطرق مفكراً وقال: «كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتى حيث كانوا من بلاد الله، والله لئن طال بى العمر لأشخصن بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى، ولأوجهن إليه جيشاً كثيفاً فإن هزمه وجهت جيشاً، فإن هزمه خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه حتى يحكم الله بينى وبينه»

يتضح لنا من حديث الخليفة المعتضد أنه مدرك حقيقة الحال فى الدولة العباسية، وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين خرجت عن سلطانه، وأن واجبه كخليفة يحتم عليه أن يظل نفوذه سائداً فى جميع البلاد الإسلامية. وقد بلغ من حنق المعتضد على أبى سعيد ورغبته فى القضاء عليه أنه كان يذكره خلال مرضه ويتلهف ويقول: حسرة فى نفسى، كنت أحب أن أبلغها قبل موتى، والله لقد كنت

(١) المقرئى: اتعاط الحناجر ص ٢١٨

وضعت عند نفسى أن أركب ثم أخرج نحو البحرين، ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفى إلا ضربت عنقه، وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة^(١).

استطاع أبو سعيد بإقراره النظام في بلاد البحرين وتدريبه أهلها على الأعمال الحربية أن يقيم دولة موطدة الأركان فيها، امتد نفوذها على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين والطائف^(٢). ولوطالت حياته لتيسر له مد سلطانه على جزيرة العرب بأكملها، لكنه اغتيل سنة ٣٠٢هـ على يد خادم له كان قد أخذه من الجيش العباسي، فخلفه ابنه سعيد الذى ظل يدبر أمور الدولة حتى ثار عليه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان وقتله وتقلد زمام الحكم في دولة القرامطة، ثم جاءه كتاب بتوليته من عبيد الله المهدي مما يثبت لنا ولاء القرامطة في بلاد البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب. وقد ترتب على ذلك قيام العلاقات الودية بين القرامطة والفاطميين واتحادهم في سياستهم العدائية إزاء العباسيين، فطلب أبو القاسم بن المهدي سنة ٣٠٦هـ من أبي طاهر أن يحضر إلى مصر على رأس حملة ليعاونه على فتحها. لكن الجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم مالبث أن أوقع الهزيمة بجيش أبي القاسم قبل أن تصل إليه النجدة من أبي طاهر^(٣).

كان أبو طاهر رجلاً طموحاً إلى المجد والعظمة. فقضى السنوات

(١) المقرئى: اتعاط الحنفا ص ٢١٩

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٧

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ٨٨-٨٩

الأولى من حكمه ينظم شئون دولته ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب، كماوجه سياسته إلى تأييد عبيد الله المهدي في عداائه للعباسيين^(١)، فعمل على إشغالهم في المشرق بحملاته التي وجهها إلى بلادهم حتى يتيح للمهدي توطيد نفوذه في المغرب، فزحف على البصرة والكوفة، وبعد أن غنم منها مغانم كثيرة عاد إلى هجر^(٢)، وفي سنة ٣١٦هـ تقدم أبو طاهر إلى بغداد وكانت تقع في يده لولا دهاء مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر الذي بعث بزواريق ملأى بفاكهة مسمومة، فلما أكل منها جند القرامطة مات منهم عدد كبير وارتد جيش أبي طاهر بعد أن تكبد خسائر فادحة^(٣). لكن هذه الهزيمة لم تفت في عضده، فقام في العام التالي بحملة جريئة اضطرب من أجلها العالم الاسلامي؛ ذلك أنه أغار على مكة في ذي الحجة سنة ٣١٧هـ (يناير ٩٣٠م) في عدد قليل، إذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل، ونهب هو وأصحابه الحجاج وقتلوه في المسجد الحرام، وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وأقام الخطبة في مكة لعبيد الله المهدي بدلا من الخليفة العباسي المقتدر ثم عاد إلى الأحساء حاملا معه الحجر الأسود^(٤).

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٣٩

(٢) ابن الأثير: ج ٨ ص ٤٥ و ٤٩

(٣) المقرئ: اتعاظ الحنفا ص ٢٤٢

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٨١ وعبد القادر الأنصاري: درر الفرائد المنظمة ج ١ ص ١٩٥-١٩٦

لم يقيم أبو طاهر بهذه الفعلة الشنعاء - كما زعم أوليري^(١) - بناء على تعاليم سرية أرسلت إليه من القيروان الغرض منها الانتقام من أهل مكة لأنهم لم يخطبوا لعبيد الله المهدي، ودليلنا على ذلك أن اهتمام هذا الخليفة بإقامة الخطبة له لم يتضح إلا بعد أن فتح أبو طاهر مكة، كما أن عبيد الله المهدي أظهر استيائه من الأحداث التي ارتكبها أبو طاهر في هذا البلد المقدس وكتب إليه ما نصه^(٢) «والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأمكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر... وحملت إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده»^(٣)، فبعث إليه أبو طاهر رداً على كتابه وعده فيه بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام^(٤).

لم يكتف أبو طاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمي بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣هـ إتاحة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم^(٥). وبذلك

(١) AShort History of the Fatimid Khalifate. p86

(٢) عبد القادر الانصاري: درر الغوائد المنظمة ج ١ ص ١٩٦

(٣) يرى أوليري في كتابه AShort History of the Fatimid Khalifate. p85 أن عبيد الله المهدي أرسل هذا الخطاب لأبي طاهر لينفي عن نفسه أية مسئولية من جراء استحواذ القرامطة على الحجر الأسود وليظهر بمظهر المدافع عن شعائر الإسلام حتى يكتسب تقدير العالم الإسلامي.

(٤) ابن خلدون: ج ٤ ص ٨٩

(٥) المقرئزي: اتعاظ الحنفا ص ٢٤٤

أصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى بلاد الحجاز. ولاشك أن ظهورها بهذا المظهر يضعف هيبتها أمام العالم الإسلامي وهو ما كان يرجوه ويعمل من أجله أبو طاهر ليمهد السبيل أمام أنصاره الفاطميين، ولاغرو فقد أعلن في إحدى قصائده ولاءه للمهدي وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين^(١).

أغرکم منی رجوعی إلى هجر فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المریخ من أرض بابل وقارنه كيوان فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر
ومنها:

فياويلهم من وقعة بعد وقعة تساقون سوق الشاة للذبح والبقر
سأصرف خيلى نحو مصر وبرقة إلى قيروان الترك والروم والخزر
ومنها:

أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم فلا أبق منهم نسل أنثى ولاذكر
أنا الداع للمهدى لاشك غيره أنا الصارم الضرغام والفراس الذكر^(٢)

حرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى على الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع الفاطميين ببلاد المغرب، كما سمحوا لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم ، ذلك أنه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام السياسى ج٢ ص ٣٣٩

(٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٢٥-٢٢٦

عارض بعض رجال دولته في تولية أخيه الأكبر أحمد بن سعيد الحسن - وكان أبو طاهر قد أوصى بأن يخلفه في الحكم - ومالوا إلى تولية سابور بن أبي طاهر وكاتبوا الخليفة الفاطمي القائم في ذلك، فجاءهم كتابه بولاية أحمد وأن يكون سابور ولي عهده^(١)، فنفذت رغبته وتقلد أحمد زمام الحكم في دولة القرامطة ببلاد البحرين وتلقب بأبي منصور وحذا حذو أخيه في ولائه للفاطميين، فأعاد الحجر الأسود من الأحساء إلى مكانه بالكعبة سنة ٢٣٩هـ إجابة لطلب المنصور الفاطمي بعد أن ذهبت مجهودات الخلافة العباسية مع أبي طاهر بشأن استرداده هباء، فقد رفض رده مقابل خمسين ألف دينار من الذهب^(٢)؛ وفي هذا دليل واضح على مدى خضوع القرامطة في بلاد البحرين لسلطان الفاطميين.

ومما لا شك فيه أن قيام دولة القرامطة في بلاد البحرين أثار في وجه الخلافة العباسية كثيرا من المتاعب والمشاكل بجانب ماكانت تعانيه من ازدياد نفوذ الأتراك واستبداد البويهيين بالسلطة في بغداد. وقد أدى انشغالها بصد غارات القرامطة عن أراضيها إلى ازدياد قوة الفاطميين في بلاد المغرب، كما مهد السبيل لفتحهم مصر، فقد كانت غارات قرامطة البحرين على أراضي الدولة العباسية بالشرق تتفق دائما مع الحملات التي وجهها عبید الله المهدي إلى مصر^(٣).

(١) ذكره De Goeje في كتابه

Memoire sur Les Carmathes du Bahrian. P146

أن المنصور بن القائم هو الذي أصدر قرار تعيين أحمد بن الحسن بدلا من سابور

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ٨٩ - ٩٠

(٣) De Goeje. Memoire sur Les cermathes du Bahrain et Les imides p.69. (٢)

وكان لاتحاد القرامطة مع الفاطميين فى نشر آراء المذهب الإسماعيلى أكبر الأثر فى صعود نجم العلويين فى القرن الرابع الهجرى، على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف، فبسط الفاطميون الذين يمثلون الخلافة العلوية سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من أرجاء جزيرة العرب، وكانت كل هذه البلاد تدين بالطاعة للعباسيين.

لم تتمتع دولة القرامطة فى بلاد البحرين بالهدوء والاستقرار فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، فقد حدث نزاع بين أفراد أسرة أبى طاهر على العرش، فقبض سابور بن أبى طاهر على عمه أحمد بن أبى سعيد الملقب بابى المنصور سنة ٣٥٨هـ - وكان إذ ذاك يلى الحكم فى دولة القرامطة - غير أنه مالبث أن خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى إخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال^(١)، وانقسم القرامطة بسبب ذلك إلى فريقين: أحدهما بزعامة بيت أبى طاهر، وثانيهما بزعامة بيت أحمد بن سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الملقب بالأعصم الذى آلت إليه إمارة بلاد البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩هـ^(٢).

عول الحسن بن أحمد على ضبط الأمور فى بلاده فنفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر إلى جزيرة أوال حتى بلغ مااجتمع بها منهم نحو من ثلثمائة، وظل يلى الحكم إلى سنة ٣٦٧هـ^(٣).

(١) جزيرة بناحية البحرين. ياقوت: معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٦٥

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٢٤٥

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٩٠

على أن الحسن بن أحمد اتبع سياسة طائشة إزاء الفاطميين، فعمل على مسألة الخليفة العباسي في بغداد الذي أمده بالمال والسلاح لمعاونته على محاربة الفاطميين، كما لم يعترض أثناء وجوده بمكة على إقامة الخطبة للمطيع العباسي مما يدلنا على انحرافه عن الفاطميين^(١). وقد كلفته هذه السياسة الجديدة ثمنا غالبا، فبعد أن كان أسلافه من أمراء القرامطة يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الفاطميين في بلاد المغرب، انقلب إلى محارب لهم، بل راغب رغبة أكيدة في القضاء عليهم، ذلك أنه بعد أن استولى الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي على دمشق طالب الحسن بن أحمد بالضريبة التي كان يدفعها له الأخشيديون^(٢)، فرفض الفاطميون أداءها إليه، ومن ثم ناصبهم العداوة^(٣). ويعتقد جاستون فييت^(٤) أن قطع الإتابة كان عذرا وهميا لقطع العلاقات بين القرامطة والفاطميين، ويقول إنه من المحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى أن الفاطميين الذين ملكوا بلاداً غنية أرادوا القضاء على القرامطة حتى لا يذيعوا بين الناس أن الفاطميين من نسلهم وحتى لا يطمعوا في سلب ما استحوذ عليه الفاطميون.

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ١٧٨

(٢) أثار القرامطة على بلاد الشام سنة ٣٥٧هـ وعجز الأخشيديون عن صدهم، واضطر الحسن ابن عبيد الله بن طنج الأخشيد وإلى هذه البلاد إلى الاتفاق معهم على أن يؤدى إليهم إتابة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار.

المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ٢٤٧-٢٤٨

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩٠

(٤) Histoire de La Nation Egyptienne p.101-102

رأى الفاطميون بعد أن تبدلت صلة المودة بينهم وبين قرامطة بلاد البحرين بتأثير السياسة التي سار عليها الحسن بن أحمد أن يعملوا على إضعاف شأنهم بإثارة النزاع بينهم، فأرسل المعز لدين الله الفاطمي إلى أتباع أبي طاهر وبنيه الذين أبعادوا إلى جزيرة أوال يخبرهم بأحقية أبي طاهر في حكم القرامطة. فلما علم بذلك الحسن ابن أحمد أمر بحذف اسم المعز من الخطبة في بلاده وإقامة الدعوة للمطيع العباسي، ولبس السواد شعار العباسيين، ثم زحف على دمشق سنة ٣٦٠هـ ودارت بينه وبين جند الفاطميين عدة معارك انتهى الأمر فيها باستيلائه على تلك المدينة^(١). ولم تلبث جيوش الحسن بن أحمد أن زحفت إلى مصر، وهددت مدينة القاهرة التي حصنها جوهر الصقلي بخندق عظيم حفره حولها، ولما دارت رحى الحرب أمام القاهرة أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه المؤرخين وأثارت دهشتهم^(٢) فتمكنوا من الوقوف في وجه القرامطة وتقهقر الحسن بن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء^(٣) سنة ٣٦١هـ.

بيد أن هذه الهزيمة التي لحقت القرامطة لم تكن خاتمة النضال بينهم وبين الفاطميين، فقد لبثوا قوة يخشى بأسها، ذلك أن الحسن بن أحمد أخذ في التآهب للقتال من جديد، فلما نزل المعز لدين الله الفاطمي بالقاهرة

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩٠

(٢) Stanley Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.107

(٣) المقرئزي: اتعاظ الحنفا ص ٢٥٠

بعد قدومه من المغرب كتب إليه يذكره بولاء أسلافه وآبائه للأئمة الفاطميين، وأن دعوة القرامطة كانت إليه وإلى آبائه من قبل^(١) فقال له: أما كان لك بجدة أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائثا عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وتنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسما من أسمائنا، فعلت أسماؤهم واستعلت هممهم واشتد عزمهم، فسارت إليهم وفود الأفاق وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبني العباس أضداد. فعبثت الجيوش، وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقيهم جيش إلاكسروه، ولا رئيس إلا أسروه، ولا عسكر إلاكسروه، والحافظنا ترمقهم، ونصرنا يلحقهم كما قال الله عز وجل: (إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) (وإن جندنا لهم الغالبون).

وقد نوه المعز في خطابه أيضا بانتشار الدعوة الفاطمية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، فقال: «ومع هذا فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون بيعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفي كل جزيرة وإقليم

(١) ابن الأثير: ج ٨ ص ٢١١

رجال منهم يفتقرون وعنهم يأخذون وهو قول الله عز وجل: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، وأنت عارف بذلك، فيأتيها النكت الحانث: ما الذي أرداك وصدك؟ شيء شككت فيه أم أمر استربت به، أم كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة، فأزالك وصدك عن السبيل ردك؟ إن هي إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين؛ وإيم الله لقد كان الأعلى لجذك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك، والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرک، الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك، والقفو لآثارهم وإن عميت لديك لتجری على سننهم...

كذلك أظهر المعز في كتابه استيائه من ميل الحسن بن أحمد إلى إقامة دعوة بنى العباس، فقال: «لم تقنع في انتكاسك وترديتك في ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك، من خلافتك الآباء ومشيك القهقري، والنكوص على الأعقاب، والتسمى بالألقاب، بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وعصيانك مولاك وجحدك ولاك، حتى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم دعوة درست ودولة قد طمست، إنك لمن الغاوين، وإنك لفي ضلال مبين، أم تريد أن ترد القرون السالفة، والأشخاص الغابرة؟ أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس؟ وآخر المتاريس في الناس، أما تراهم (كانهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية) ختم والله الحساب، وطوى الكتاب، وعاد الأمر إلى أهله، والزمان إلى أوله؛ وأزفت الأزفة، ووقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها، وجئ بالملائكة والنبیین،

وخسر هنالك المبطلون. هنالك الولاية لله الحق، والمملك لله الواحد القهار، فله الأمر من قبل ومن بعد...»

وفي نهاية الكتاب طلب المعز من الحسن بن أحمد أن يختار إحدى خصال ثلاث - عرضها عليه - ويعمل على تنفيذها، وتوعده بسوء العاقبة. فقال: « ونحن معرضون ثلاث خصال - والرابعة أردى لك وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلا عليها - فاختر: إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير - وهي أسهل ما يرد عليك - وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم - ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار - وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجزيك على إحدى ثلاث: إما قصاص، وإما منأ بعد، وإما فداء، فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك، وإن أبيت إلا فعل اللعين: (فاخرج منها فإنك رجيم* وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين)، اخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيه، وقيل اخسئوا ولا تكلمون، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فلاسماء تظلك، ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك؛ ولا نهار يكنك؛ ولا علم يسترك، ولا فئة تنصرك^(١)،

لم يكتف المعز بإرسال هذا الكتاب إلى الحسن بن أحمد ، بل أتبعه بعزله عن إمارة القرامطة، كما بعث إلى بنى أبي طاهر يحرضهم

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا من ٢٥٨-٢٦٥

على الخروج عليه ويؤيد أحقيتهم فى الولاية على بلاد البحرين؛ فخرجوا من جزيرة أوال ونهبوا الأحساء فى غيبة الحسن بن أحمد، غير أن الخليفة العباسى الطائع مالبث أن كتب إليهم بالتزام الطاعة وأن يصلحوا ابن عمهم (الحسن بن أحمد) ويقيموا بجزيرة أوال وبعث من عقد الصلح بينهم^(١).

لم يكثر الحسن بن أحمد بتهديد المعز له وعزله إياه، وأساء فى رده، فكتب إليه « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام^(٢)، ثم زحف على مصر سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م) وتوغلت جنوده فى الأراضى المصرية، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة، لكنه عجز للمرة الثانية عن الاستيلاء على تلك المدينة وتقهقر بجيوشه إلى بلاد البحرين ونجح الفاطميون فى استرداد بلاد الشام.

على أن النفوذ الفاطمى لم يستقر طويلا فى تلك البلاد فقد استطاع أفتكين التركى الاستيلاء على دمشق سنة ٣٦٥هـ؛ وكتب إلى الحسن بن أحمد يستنجد به. فسار إليه من الأحساء وتمكنت قواتهما من إحراز بعض الانتصارات فى بلاد الشام، فلما بلغ ذلك العزيز بالله الفاطمى زحف من القاهرة على رأس حملة كبيرة وأوقع بقوات أفتكين والقرامطة الهزيمة، وبهذا النصر الذى أحرزه الفاطميون توطدت أقدامهم فى بلاد الشام، وجلا عنها القرامطة إلى بلادهم.

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩٠

(٢) ابن الأثير: ج ٨ ص ٢١١

قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد سنة ٣٦٧هـ كما أنهم أنكروا سياسته العدائية إزاء الفاطميين ومبايعته الخليفة العباسي، وعمل أتباع أبي طاهر على إقصاء ولد أبي سعيد عن الإمارة، ثم استقر الرأي على أن يتولى الحكم في بلاد البحرين اثنان من سادتهم وهما جعفر وإسحق^(١)؛ فسارا على السياسة التي اتبعها أمراء القرامطة قبل تولية الحسن بن أحمد من إقامة الدعوة الفاطمية ومحاربة بني العباس^(٢).

عاد قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد إلى القيام بحملات على أراضي الدولة العباسية؛ فأغاروا على الكوفة سنة ٣٧٥هـ وادى ذلك إلى انزعاج أهلها لما عرف به القرامطة من شدة البأس وقوة الشكيمة حتى هابهم الناس؛ فبعث إليهم صمصام الدولة سلطان بني بويه جيشاً أوقع بهم الهزيمة على نهر الفرات، وتعقبهم إلى القادسية^(٣)؛ وبذلك تيسر للبويهيين إخراجهم نهائياً من بلاد العراق.

ضعف القرامطة منذ أواخر القرن الرابع الهجري حتى لم يبق لهم إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية لا تستطيع

(١) ذكر (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٨) أنه تولى أمر القرامطة بعد وفاة الحسن بن أحمد ستة نفر اشتركوا جميعاً في الحكم وسموا السادة.

(٢) (ابن خلدون ج ٤ ص ٩١)

(٣) (ابن الأثير ج ٩ ص ١٤-١٥)

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٢، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٥٦

قطع الطريق على الحجاج، ولكن كان لها على باب البصرة ديوان صغير لأخذ الضرائب^(١).

كذلك أدى التنافس على الرياسة بين كل من جعفر وإسحق إلى التعجيل باضمحلال دولتهم في بلاد البحرين وزوالها في نهاية القرن الرابع الهجري؛ يقول ابن خلدون^(١): «وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ هـ عليهم وملك الأحساء من أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه».

كان يقيم ببلاد البحرين بجانب القرامطة كثير من قبائل العرب ومن أشهرهم بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، كثيراً ما استنجد بهم القرامطة على أعدائهم واستعانوا بهم في حروبهم. وقد حدثت بينهم وبين هؤلاء العرب عدة منازعات أدت في بعض الأحيان إلى اشتعال نار الحرب بين الفريقين.

كان بنو ثعلب أكثر العرب المقيمين ببلاد البحرين عدداً، وأظهروهم عزة، فاستولى زعيمهم الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي على تلك البلاد بعد أن انحل أمر القرامطة وانقرض الملك من أسرة الجنابي، ولكن الأمور لم تستقر في بلاد البحرين بسبب المنازعات التي قامت بين القبائل العربية؛ فقد استعان بنو ثعلبة ببني عقيل على بني سليم وطردوهم من

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٩١.

تلك البلاد، فساروا إلى مصر ومنها رحلوا إلى أفريقية ثم حدث خلاف بين بني ثعلب وبني عقيل انتهى الأمر فيه بخروج بني عقيل إلى العراق فأقاموا دولة بإقليم الجزيرة.

ولم تقف أطماع الأصغر زعيم بني ثعلب عند حد بسط سلطانه على بلاد البحرين، بل سرعان ماتغلب على الجزيرة والموصل وهزم نصير الدولة بن مروان صاحب ميافرقين ودياربكر، كذلك نجح الأصغر في جعل الحكم وراثيا في بنيه من بعده ببلاد البحرين، فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا، وخلفهم في حكم هذه البلاد بنو عقيل الذين عادوا إلى ديارهم، بعد أن تغلب عليهم السلاجقة في الجزيرة^(١). وقد ذكر أبو سعيد صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب أنه سأل أهل البحرين حين قابلهم بالمدينة المنورة سنة ٦٥١ هـ عن بلادهم، فقالوا: الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عامر بن عقيل، أما بنو ثعلب فأصبحوا من جملة رعاياهم.

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩١-٩٢.

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية في اليمامة وعمان

١ - اليمامة: كانت اليمامة^(١) من بين ولايات جزيرة العرب التي تدين بالطاعة للعباسيين حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حيث استولى عليها فى أيام المستعين بالله العباسى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب. واتخذ الحضرمة حاضرة له^(٢)، فأقام باليمامة دولة علوية عرفت باسم دولة بنى الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية التى بدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر عليها منذ ذلك الوقت بسبب ازدياد نفوذ الأتراك واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء.

لم يلق محمد الأخيضر عذاء كبيراً فى إقامة دولته باليمامة، واستطاع أن يوطد نفوذه فيها ويجعل الحكم وراثياً فى أبنائه من بعده، وكان له من الأولاد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف، ولما توفى خلفه يوسف الذى أشرك معه ابنه إسماعيل فى إدارة شئون اليمامة طيلة حياته، ثم انفرد إسماعيل بولاية اليمامة بعد وفاة أبيه.

(١) يحدها من جهة الشرق بلاد البحرين ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز ومن الجنوب نجران، ومن الشمال نجد والحجاز.

القلقشندي صبح الأعشى ج ٥ ص ٥٨.

(٢) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب ص ٤١.

وقد وجه كل من رستم بن الحسين بن حوشب وعلى بن فضل وهما من دعاة الإسماعيلية في اليمن أنظارهما إلى الإمامة بسبب قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها، واعتقدا أن أهلها سيرحبون بالدعوة الفاطمية، لذلك بعثا إليها بالدعاة لنشر المذهب الإسماعيلي^(١)، كما بعثا دعاة آخرين لنفس هذا الغرض إلى بلاد البحرين والسند والهند ومصر والمغرب^(٢).

لم يزل بنو الأخيضر يتولون الملك بالإمامة حتى طمع قرامطة بلاد البحرين في بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فتغلبوا على الإمامة في أوائل القرن الرابع الهجري، كما أخضعوا مكة وعمان لسلطانهم، وبذلك زالت دولة بنى الأخيضر^(٣).

على أن نفوذ القرامطة في الإمامة ما لبث أن ضعف بعد زوال دولتهم في بلاد البحرين، ولم يبذل خلفاء بنى العباس أى محاولة لاستعادة سلطانهم عليها، فاستقل بإدارتها زعماء العرب المقيمين بها وعلى الأخص من قيس عيلان^(٤).

(١) عرف بذلك نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. وكان أتباعه يعرفون بالإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ثم إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم تنقلت في بنى الحسين إلى جعفر الصادق، ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم تنقلت في بنيهِ (القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠).

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ٦٨.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٨ - ٩٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٠.

٢- عمان: كانت عمان من بين الولايات الإسلامية بجزيرة العرب التي تدين بالطاعة للعباسيين في أواخر القرن الثالث الهجري. وقد تزعم الحكم فيها في عهد الخليفة المعتضد بنو شامة بن لؤى بن غالب ففتح محمد بن القاسم الشامي عمان بمعاونة هذا الخليفة ثم وليها من قبله وأقام الخطبة فيها لبنى العباس، ونجح في جعل الحكم وراثياً في أبنائه من بعده. على أن الضعف والانحلال ما لبث أن أصاب إمارتهم بسبب الخلاف الذي قام بينهم سنة ٣٠٥هـ، فلحق بعضهم بالقرامطة في بلاد البحرين وظل الاضطراب سائداً في ولايتهم حتى تغلب عليها سنة ٣١٧هـ أبو طاهر القرمطي، وخطب بها لعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب^(١)، وبذلك دخلت عمان في حوزة دولة القرامطة ببلاد البحرين وصار ولايتها يعينون من قبلها.

لم يكن نفوذ القرامطة موطداً في عمان؛ فقد استقل بالحكم فيها يوسف بن وجيه، وحاول توسيع رقعة إمارته، فسار على رأس حملة بحرية يريد البصرة، وكاد يستولى عليها لولا ما حل بسفنه من جراء الحريق الذي دبره بعض أعوان بني البريدي الذين استقلوا بالبصرة والأهواز وواسط في عهد الخليفة المتقي. ومضى يوسف بن وجيه صاحب عمان هارباً في أوائل سنة ٣٢٢هـ^(٢) ولم يتمتع طويلاً بالحكم بعد هذه الهزيمة، فقد ثار في وجهه مولاة نافع وتغلب عليه ثم تقلد زمام الأمور بدلا منه؛

(١) ابن خلدون ج٤ ص ٩٣.

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص ١٢٠.

ودخل في طاعة معز الدولة بن بويه وخطب له على المنابر وضرب اسمه على الدينار والدرهم^(١).

انتهز القرامطة فرصة عدم استقرار الأمور في عمان، فتغلبوا عليها سنة ٣٥٤هـ وهرب نافع منها بعد أن وثب به أهل عمان، لكنهم لم يستأثروا بالنفوذ فيها؛ فقد استقر رأى أهلها على أن يولوا عليهم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان، فولى إمارة عمان بعد أن كان ممتنعاً عن تقلدها، واتخذ على بن أحمد كاتباً - وكان يكتب للقرامطة من قبل.

بدأ الأمير عبد الوهاب عمله بمنح الجند أرزاقهم، وكانوا طائفتين إحداهما من البيض والثانية من الزنج، فلما فرغ كاتبه على بن أحمد من توزيع المرتبات على البيض قال للزنج - وكانوا ستة آلاف رجل - إن الأمير عبد الوهاب أمر لكم بنصف ماوزع على البيض، فامتعضوا لذلك وثاروا ضده؛ لكنه ما لبث أن استمالهم إليه بقوله «هل لكم أن تبايعوني فأعطيكم مثل سائر الأجناد؟» فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، فسواهم في العطاء مع البيض مما أدى إلى تدمير البيض وقيام الحرب بينهم وبين الزنج، فلما كانت الغلبة للزنج هدأت الفتنة في عمان واستقر على بن أحمد في إمارتها بعد عزل الأمير عبد الوهاب^(٢).

رأى معز الدولة بن بويه أن الفرصة سانحة له للاستيلاء على عمان بعدما وصل إليه من أنباء الفتن والاضطرابات التي ثارت فيها، فسار من واسط إلى الأبله وهناك أعد حملة بحرية لفتحها سنة ٣٥٥هـ، وأسند

(١) ابن الأثير: ج ٨ ص ١٨٦.

(٢) ابن الأثير: ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٧، ابن خلدون: ج ٤ ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

قيادتها إلى أبي الفتوح محمد بن العباس، وطلب من عضد الدولة بفارس أن يمدّه بالعساكر فوافاهم المدد بسيراف^(١)، ثم سارت المراكب حاملة الجند إلى عمان، فتغلبوا عليها وأقيمت الخطبة فيها لمعز الدولة، وتولى حكمها أبو الفرج بن العباس نائباً عنه^(٢).

لما توفى معز الدولة غادر عمان إلى بغداد نائبه أبو الفرج بن العباس وبعث إلى عضد الدولة يطلب منه أن يتسلمها، فتولى أمرها عمر بن نهبان الطائي، وأقام الدعوة لعضد الدولة؛ غير أن الزنج مالبثوا أن تغلبوا على عمان، وقتلوا ابن نهبان وولوا عليهم رجلاً يعرف بابن حلاج؛ فلما علم بذلك عضد الدولة أرسل إليهم جيشاً بقيادة أبي حرب طغان، ودارت بينه وبين الزنج معركة حامية بصحار - قصبة عمان - انتهى الأمر فيها باستيلاء أبي حرب على هذه البلدة وانهزم أهلها سنة ٣٦٢هـ.

على أن نفوذ عضد الدولة لم يتوطد رغم ذلك في عمان، فقد اجتمع بجالها كثير من الخوارج وولوا ورد بن زياد أميراً عليهم، كما جعلوا حفص بن راشد خليفة لهم واشتدت شوكتهم فبعث إليهم عضد الدولة حملة بقيادة المطهر بن عبد الله الذي تمكن بعد أن نزلت جنوده بأرض عمان من التغلب على الثائرين وأسر كثيراً من رؤسائهم وظل يتتبعهم حتى أوقع بهم وقعة أمت على بقاياهم واضطر خليفتهم إلى مغادرة عمان والإقامة ببلاد اليمن؛ وبذلك استقرت الأمور لعضد الدولة بعمان

(١) سيراف. تقع على ساحل الخليج الفارسي (ياقوت: معجم البلدان).

(٢) ابن خلدون. ج ٣ ص ٤٢٥، ج ٤ ص ٤٤٣ - ٤٤٤، ٤٥٠.

ودانت له بلادها بالطاعة^(١).

كان بنو مكرم من وجوه عمان الذين استعان بهم البويهيون في إدارة شئون دولتهم، وتولى بعضهم الإمارة في عمان وأقاموا الخطبة لبني العباس، ولما ضعفت دولة بني بويه ببغداد استبد بنو مكرم بالسلطة في عمان وتوارثوا الحكم فيها. وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم الذي ولى الإمارة سنة ٤١٨هـ واستطاع بحسن إدارته، وجوده وكرمه أن يجعل الحكم وراثياً في أبنائه من بعده^(٢).

ولما توفي الأمير أبو القاسم سنة ٤٢٧هـ خلفه ابنه أبو الجيش، فاستغل ضعفه قائد جنده علي بن هطال واستأثر بكثير من النفوذ وأوقع الفرقة بينه وبين أخيه المذهب الذي انتهى أمره باعتقاله وقاتله؛ ثم توفي بعد ذلك بقليل أبو الجيش؛ فحاول علي بن هطال أن يولى أخاه أبا محمد، فأخفته أمه حتى لا تتيح له فرصة التخلص منه وطلبت إليه أن يتولى بنفسه إمارة عمان، فرحب بذلك، غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة وصادر التجار واستولى على كثير من أموال الأهالي.

ولما وصل إلى أبي كاليجار سلطان بني بويه في العراق ما قام به علي ابن هطال من الأعمال التي سببت تذمر أهالي عمان، عول على إقصائه عن الإمارة، فأمر وزيره العادل أبا منصور أن يكاتب المرتضى الذي كان نائباً

(١) ابن الأثير: ج ٨ من ٢١٣ - ٢١٤، ابن خلدون: ج ٤ من ٤٥٠.

(٢) ابن خلدون: ج ٤ من ٩٢.

لأبى القاسم بن مكرم بجنال عمان ويطلب إليه محاربة ابن هطال، كما جهز العساكر من البصرة لمساعدته، فسافر المرتضى إلى عمان وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على أكبر أعمالها ودس لابن هطال من اغتاله؛ ثم بعث الوزير العادل أبو منصور رسولا من قبله إلى عمان ولى أبا محمد بن مكرم الإمارة سنة ٤٣١ هـ^(١).

على أن أسرة بنى مكرم ما لبثت أن ضعفت وزال ملكها بعمان وتولى أبو المظفر بن أبى كالجار البويهى إمارة هذه البلاد، لكنه عجز عن إدارة شئونها بنفسه واستأثر بالسلطة خادم له، وأساء التصرف فى الأموال مما أثار كراهة الأهالى وتذمرهم. ولما وقف ابن راشد - وكان من زعماء الخوارج المقيمين بجنال عمان - على ما وصلت إليه الحال فى البلاد من جراء ضعف الأمير أبى المظفر واستبداد خادمه بالأمور دونه، دعا أتباعه وسار على رأسهم لمحاربة أبى المظفر، غير أن الهزيمة حلت بابن راشد والخوارج. فعادوا إلى محل إقامتهم، وأخذ ابن راشد يعد العدة ويحشد الجموع للتخلص من إمارة أبى المظفر. ولما تهيأ لمحاربته سار إليه وأعانه أهل البلاد بسبب كراحتهم للديلم وبذلك تيسر له الانتصار على أبى المظفر سنة ٤٤٢ هـ، وقبض على زمام الأمور فى البلاد، فبدأ حكمه بالعمل على إقامة العدل، كما أسقط المكوس على جباية عشر ما يرد إلى الأهالى، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة وتلقب بالراشد بالله^(٢).

(١) ابن الأثير: ج٩ ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) ابن الأثير: ج٩ ص ١٩٥، ابن خلدون: ج٤ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

لم تستقر الأمور في عمان بعد أن ولي حكمها الخوارج، كما تفككت عرى وحدتها، فقامت في بعض بلادها الواقعة على الخليج الفارسي إمارة مستقلة تقلد زمام الحكم فيها زكريا بن عبد الملك الأزدي سنة ٤٤٨ هـ وكان الخوارج يدينون لأسرته بالطاعة^(١). ومن ذلك يتبين انحلال النفوذ العباسي في عمان وعجز بني بويه عن الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الإمارة، كما أن السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة في بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري شغلوا عنها بالعمل على توطيد نفوذهم في العراق ومد سلطانهم على بلاد المشرق.

كانت الدولة الفاطمية في مصر ترقب الاضطراب السائد في عمان وتحرص على الإبقاء على دعوتها التي قام دعائها بنشرها في هذا القطر منذ أواخر القرن الثالث الهجري، فلما وصل إلى المستنصر بالله الفاطمي ضعف النفوذ العباسي في عمان وثورة رجالها ضد الهيئة الحاكمة فيها بعث إلى المكرم أحمد الذي ولي الملك في بلاد اليمن بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحي خطاباً في ربيع الثاني سنة ٤٦٩ هـ طلب إليه فيه القيام بإدارة شئون ولاية عمان والعمل على استتباب الأمن فيها رغم أنها لا تدخل في نطاق دولته^(٢).

وفيما يلي بعض ما جاء فيه^(٣): «من عبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، إلى الملك الأجل، الأوحده،

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩٣.

(٢) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of Al - Mustaneir Billah). 1934, Vol VII.

Part2. p.322.

(٣) السجلات المستنصرية رقم ٥٤ ص ١٧٦ - ١٧٩.

المنصور العادل، المكرم، عمدة الخلافة...، عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين... أبي الحسن أحمد...، أما بعد: فإن أمير المؤمنين لما يعلمه من خلوص طاعتك وضميرك، بحسن الطريقة في سياستك وتدبيرك... وإن أثارك فيما إليك من الأعمال ماثورة، ومقاماتك في نصرة الدين والإصابة بالدعوة العلوية معروفة مشهورة...، ولقد جدد السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، أبو النجم المستنصري... في هذا الحين ذكرك بالحضرة، وشيد مالك لديها من الاصطفاء والأثرة...، ولما انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين حال (مدينة عمان) وما جرى فيها من الغلاء والفساد...، والمروق عن أحكام الملة الدينية...، وقد كان غدق أمر الحرم المحروس وأعماله بولايتك، ووكله إلى تدبيرك وسياستك، بحكم كون الأعمال اليمنية والحجازية واحدة في الاهتمام بأحوالها، ولقرب أعمالك من أعمالها...، رأى أمير المؤمنين... أن يضيف إلى ذلك وما يجرى في نظرك ولاية مدينة عمان، لكونها أيضاً لأعمالك مجاورة...، وخذ كافة الرجال والمستخدمين بوظائف الخدمة، والمصارعة إلى كل مهمة، وصيانة الأعمال الدانية والقاصية، وتثبيت قانون الخدمة. فإن أمير المؤمنين باسط يدك في جميعهم لتثبيت من ترتضى طريقته، وتستبدل من ترى الصواب إلى الاستبدال به، وأمير المؤمنين يشعر ما طالع به حضرة الأمير مستخلص الدولة العلوية وعدتها: عبد الله بن علي العلوي المستقر بالأحساء...، وأنه اعتمد إقامة الدعوة العلوية، وناضل كافة الأعداء من الخوارج...، وأصاب بالدعوة المستنصرية في

أرجائها...، واقتضى ذلك نفوذ السجل من حضرة أمير المؤمنين مضمناً إحماد خدمته...».

وكانت بلاد اليمن إذ ذاك تبعث إلى عمان والهند بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية، كما أنه كان بهذين القطرين أنصار كثيرون يؤيدون المذهب الإسماعيلي الذي تحرص الدولة الفاطمية على نشره، فلما ورد إلى المستنصر عدة خطابات منهم تتضمن وفاة دعائه ورغبتهم في أن يزود بلادهم بدعاة غيرهم، بعث إلى المكرم أحمد كتاباً في ربيع الأول سنة ٤٧٦هـ أخبره بموافقته على تعيين مرزبان بن إسحق داعياً بالهند، وإسماعيل بن إبراهيم بن جابر داعياً بعمان.

ويتجلى لنا حرص الخليفة الفاطمي على تعيين الدعاة بهذين القطرين من قوله^(١): «... فأما ما ذكرته من أمر الدعوة الهادية بالهند وجزائرها، وعمان وعملها، وفقد المتولين لها...، ووردت مكاتبات إلى أمير المؤمنين من هناك يلتمسون استخدام من يجمع شملهم ويثقفون به - بعد من فقدوه - ميلهم، وسؤالك تقليد الرئيس: مرزبان بن إسحق بن مرزبان الهند وجزائرها، وإسماعيل بن إبراهيم بن جابر عمان وعملها، لما وصفته من ديانتهم، وحميد أثرهما ومذهبهما، فقد وقف أمير المؤمنين على ما شرحته، وتقدم بإصدار ملطفين عن حضرته إلى المذكورين بتقليدهما، من مجلس السيد الأجل، أمير الجيوش، وجميع ذلك واصل بإذن الله بوصول هذه الإجابة...».

(١) السجلات المستنصرية رقم ٦٣ من ٢٠٥.

كما أرسل المستنصر في أواخر سنة ٤٨١هـ خطاباً إلى السيدة الحرة التي آل إليها الملك ببلاد اليمن أخبرها بموافقته على تعيين أحمد ابن مرزبان داعياً بالهند بعد وفاة والده، وأبدى ارتياحه لاختيارها حمزة بن سبط حميد الدين ليقوم بمعاونة الداعي أحمد في نشر الدعوة الفاطمية ببلاد الهند، ونوه المستنصر في خطابه بثقته في المجهودات التي تقوم بها السيدة الحرة في سبيل نشر الدعوة له في كل من بلاد اليمن وعمان والهند^(١).

ومما ورد فيه^(٢) «من عبد الله ووليه: معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة، السيدة، السيدة، المخلصة ...، ولية أمير المؤمنين ... أدام الله تمكينها ونعمتها ... أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك المضمن وفاة داعيه بالهند: غرس الدين، ولي أمير المؤمنين، مرزبان، وأنه خلف ولدين ذوى دين وتقية واستصلاح للخدمة. وأن الموماً إليه منهما أحمد الأكبر لتمييزه وحميد طريقته، ...، ثم شفعت ذلك بما اعتمده إسماعيل بن إبراهيم الداعي بعمان من التخلي عن الخدمة ...، وأن سبط حميد الدين خلف ولداً يسمى حمزة يصلح للاستخدام عوض المذكور: ...، وأحمد الله تنبئك على هذه المصالح وتفقدك أحوال الدعوة في (تلك) الأطراف والنواحي ... وأوعز أمير المؤمنين إلى فتاه السيد الأجل، أمير جيوشه ... بإصدار التقليدين عن مجلس نظره باسم كل من الداعيين المذكورين ...، وأنت

(١) (B.S.O.S.), 1934 Vol. VII Part2, p.321,324

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٥٠ من ١٦٧ - ١٦٩.

قد جعل إليك أمير المؤمنين النظر في تلك البلاد والأعمال ومراعاة دعائها وانتظام حال الدعوة فيها...».

يتضح لنا مما تقدم إلى أي حد عنيت الخلافة الفاطمية بنشر دعوتها في عمان، وكيف أصبح لهذه الدعوة أنصار كثيرون بتلك الولاية. ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت ترمى من وراء بث الدعوة بعمان إلى تحقيق سياستها في بسط سلطانها على أقطار جزيرة العرب؛ ليتيسر لها بذلك إضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها.

الفصل الرابع

النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن

دخلت بلاد اليمن في حوزة العباسيين بعد أن انتقلت إليهم الخلافة وصار الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم، غير أن الأمور لم تستقر استقراراً تاماً في هذه البلاد، فلما بلغ المأمون اضطراب الأمن فيها وذيوع الدعوة الشيعية بين أهلها، عول على أن يختار لولايتها رجلاً يستطيع أن يقضى على عوامل الفساد فيها؛ فأشار عليه الحسن بن سهل بأن يسند إلى محمد بن إبراهيم الزيادي ولاية اليمن؛ فولاه عليها سنة ٢٠٣ هـ ولم يمض عام واحد على هذا الوالى حتى اختط مدينة زبيد واتخذها حاضرة له^(١)، وأخذ منذ ذلك الوقت يوطد نفوذه في جميع أرجاء بلاد اليمن؛ فدخلت في طاعته حضرموت والشحر وديار كندة ولحج والتهائم^(٢)؛ ومازال نفوذه في ازدياد حتى أصبح في مقام الملوك المستقلين لكنه مع ذلك احتفظ بولائه للخلافة العباسية وصار يقيم الخطبة لبنى العباس ويرسل إليهم الخراج والهدايا كل عام^(٣).

نجح محمد بن إبراهيم الزيادي في جعل ولاية اليمن وراثية في أبنائه تدين بالطاعة للعباسيين، فلما توفى ٢٤٥ هـ خلف ابنه إبراهيم، ثم

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٣.

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ٢١٢.

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٤.

تولى بعده ابنه زياد، غير أن هذا الوالي لم يمكث طويلاً في الحكم وأعقبه في ولاية اليمن ابنه أبو الجيش إسحق، فظل يلى أمورها حتى بلغ الثمانين من عمره.

أخذت الدولة الزيادية في بلاد اليمن في الانحلال، في أواخر عهد الأمير أبي الجيش إبراهيم، فخرج بصنعاء أسعد بن أبي يعفر، وثار بصعدة يحيى بن القاسم الرسي الملقب بالهادي^(١)، وكان يدعو للزيادية - أتباع زيد بن علي زين العابدين - ؛ ولما عظم نفوذه وكثر أنصاره زحف على صنعاء، فاستولى عليها من يد أسعد بن يعفر، غير أن بني أسعد ما لبثوا أن استردوها منه، فعاد إلى صعدة وأسس فيها دولة بني الرسي. وهكذا أصبح في بلاد اليمن ثلاث دويلات: إحداها في زبيد، والثانية في صنعاء، والثالثة في صعدة^(٢).

كان لضعف الدولة الزيادية أثر كبير في نجاح الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، ففي الوقت الذي تفككت فيه عرى وحدة هذه الدولة بعث محمد الحبيب إمام الإسماعيلية بسلمية^(٣) كلا من علي بن الفضل اليماني

(١) ورد نسبه في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٨ على الوجه الآتي: يحيى بن الحسين ابن القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

Kay, Yamen, Ita Early Mediaeval Hkstory p:242.

(٢) صعدة: بلدة على ستين فرسخاً من صنعاء (القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢).

(٣) بلدة من أعمال حماء وكانت تعد من أعمال حمص ياقوت؛ معجم البلدان.

وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى إلى تلك البلاد لينشر الدعوة للمهدى من آل محمد، فلما وصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ^(١) أخذوا فى بث دعوتهما، ثم بنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة وأعد جيشاً زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، كما بعث الدعوة إلى جميع أرجاء اليمن فنشروا الدعوة الإسماعيلية بين أهلها، وتمكن بمعاونتهم من التغلب على كثير من بلادها^(٢).

لما رأى ابن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن أن دعوته إلى المهدى لقيت قبولا لدى كثير من أهالى بلاد اليمن، كتب إلى محمد الحبيب وابنه عبيد الله بسلمية يخبرهما بما فتح من البلاد كما بعث إليهما بالأموال والهدايا، فسرهما ذلك^(٣).

على أن محمد الحبيب لم يكتف بنجاح تلك الدعوة فى بلاد اليمن بل حرص أيضاً على نشرها فى بلاد المغرب؛ فأرسل أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعى إلى ابن حوشب وأمره بالدخول فى طاعته والاقتراء بسيرته، على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر بها الدعوة الإسماعيلية. فقدم أبو عبد الله على بن حوشب وصار من كبار أصحابه، ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة الداعيين أبى سفيان والحلوانى فى بلاد المغرب، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالقيام بالدعوة إلى المهدى فى تلك البلاد. فخرج أبو عبد الله إلى مكة، ثم رحل منها قاصداً بلاد المغرب، وأخذ ينتشر بين أهلها الدعوة الإسماعيلية ويتحدث

(١) Kay, Yamen fits Early Mediaoval History p.225.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠ - ٣١، المقرئى: اتعاط الحنفا ص ٦٧ - ٦٨.

(٣) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ - ٢٨.

إليهم عن قرب ظهور المهدي من آل علي بن أبي طالب، وظل أبو عبد الله موالياً للإمام محمد الحبيب يرسل إليه رسله وهدايا^(١).

كان محمد الحبيب قد عهد لابنه عبيد الله بالإمامة من بعده وقال له: «إنك ستهاجر بعدى هجرة وتلقى محناً شديدة»، فلما توفي خلفه في إمامة الإسماعيلية، فواصل القيام بنشر الدعوة لنفسه، وبذل الأموال الكثيرة في سبيل نجاحها.

كان دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر في بلادهم، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم، وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية في بلاد المغرب، فكانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولته المنشودة. فأرسل كبيرهم أبو عبد الله الشيعي إلى عبيد الله وهو بسلمية وفداً من رجال كتامة يدعوه للمقدوم إلى بلاد المغرب. يقول المقرئزي^(٢): «وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له وأنه ينتظره، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص».

كان الخليفة المكتفي العباسي في ذلك الوقت قد وصله - نبأذيوع الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن والمغرب، فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه^(٣)، فخرج عبيد الله هارباً من سلمية بعد مقابلته وقد كتامة ووقفه على مدى نجاح دعوته في بلاد المغرب، وأخبر

(١) ابن الأثير: ج ٨ ص ١٠ - ١١، المقرئزي: اتعاظ الحنفا ص ٦٨ - ٦٩ - ٧٤ - ٧٧.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ١١.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢.

بعض أتباعه أنه سيقصد اليمن. يقول جعفر الحاجب الذى صحبه عند رحيله من سلمية «وأمرنا المهدي بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه وأظهر لنا أنه يريد اليمن»^(١).

على أن عبید الله المهدي لم يكن راغباً رغبة أكيدة فى إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى؛ يؤيد ذلك ما قاله ابن الأثير^(٢): «وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى، فطلب وهرب هو وولده أبو القاسم نزار، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب؛ وفضلاً عن ذلك فإن عبید الله المهدي كان حريصاً على تحقيق رغبة أبيه فى إقامة دولته بالمغرب؛ فقال له حين بلغه نجاح ابن حوشب فى نشر الدعوة إلى المهدي فى اليمن: «هذه دولتك قد قامت، لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب»^(٣).

ومما لا شك فيه أن عبید الله المهدي كان يحرص ألا يقع فى قبضة العباسيين الذين بثوا رجالهم لاستقصاء أخباره، لذلك عول على إخفاء حقيقة الجهة التى سيقصدها، وقال لبعض أتباعه إنه سيذهب إلى اليمن؛ رغبة منه فى ألا تصل أخبار هربه إلى العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يبذلون قصارى جهدهم للقضاء عليه.

(١) اليمانى: سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ (مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٣٦).

(٢) الكامل فى التاريخ: ج ٨ ص ١٢.

(٣) البهاء الجندى: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ٤٢.

أما ما ذكره ابن خلدون^(١) والمقرئزي^(٢) عن توجه عبيد الله المهدي إلى المغرب وعدوله عن إقامة دولته في بلاد اليمن بسبب ما بلغه عن انحراف علي بن الفضل عن الدعوة الإسماعيلية وإساءته السيرة في بلاد اليمن بما نشره من آراء أفسدت عقول فريق من أهلها، فلا يستند إلى أدلة صحيحة؛ لأن المتتبع لرحلة المهدي من سلمية إلى مصر، ثم إلى بلاد المغرب يتضح له أنه لم يفكر في الذهاب إلى بلاد اليمن، كما أن مناهضة علي بن الفضل للدعوة الإسماعيلية لم تظهر إلا بعد أن استقر الأمر لعبيد الله المهدي في بلاد المغرب؛ ولو أن عبيد الله المهدي كان حريصاً على إقامة دولته في بلاد اليمن لما ثناه عن ذلك خروج علي ابن الفضل على دعوته لأن داعيه ابن حوشب ظل موالياً له وصار له أنصار كثيرون بين أهالي بلاد اليمن يرحبون بقدوم المهدي إليهم ويعتقدون بصحة إمامته، فإذا ما قصد بلادهم دخل الجميع في طاعته والتفوا حوله.

كان عبيد الله المهدي يصحب عند خروجه من سلمية داعي دعائه فيروز، فلما وصل إلى مصر وشرع في الرحيل منها إلى المغرب شق ذلك على فيروز، وتخلف عن السير معه، ومضى إلى اليمن حيث استقبله ابن حوشب بمظاهر الحفاوة والاحترام، لما كان يتمتع به من مكانة خاصة عند المهدي، وقد تحدث فيروز عن مهمته في بلاد اليمن، فقال: إن الإمام بعث به مشرفاً عليه إلى أن يقوم من المغرب بجنده إلى مصر ويكتب إليه ليمنه بالعساكر من أهل اليمن^(٣).

(١) ج ٤ ص ٦٩

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٦

(٣) اليماني: سيرة جعفر الحاجب (مجلة كلية الآداب - ديسمبر ١٩٣٦) ص ١١٤ - ١١٥.

على أن ابن حوشب ما لبث أن وقف على الأسباب التي حملت فيروز على القدوم إلى اليمن حين وصله كتاب من المهدي مقرونا بكتاب الداعي أبي علي - صهر فيروز - الذي كان إذ ذاك يقوم بنشر الدعوة الفاطمية في مصر، وقد تضمن هذان الكتابان كيف انصرف فيروز عن المهدي ورحل إلى اليمن مغاضبا له. وكان المهدي يخشى عاقبة خروج فيروز عليه، لذلك أمر ابن حوشب في كتابه بالعمل على التخلص منه.

لما وصل إلى فيروز ما تضمنه الكتاب الذي بعثه المهدي إلى ابن حوشب ولي هاربا، ولم يزل ابن حوشب يتابع البحث عنه حتى بلغه خبر اتصاله بعلي بن الفضل، وأنه فتنه عن الدعوة الإسماعيلية ودعاه إلى نفسه، فخرج إليهما وحاربهما مدة طويلة^(١).

كانت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن في حاجة إلى توحيد جهود كل من ابن حوشب وعلي بن الفضل في سبيل نشرها، لكن علي بن الفضل لم يتعاون مع ابن حوشب تعاونا صادقا لتحقيق هذه الغاية، بل كثيراً ما استقل عنه في نشر تلك الدعوة.

كذلك لم يكن علي بن الفضل مخلصا في ولائه لعبيد الله المهدي، فوقع تحت تأثير فيروز الذي أغراه بقبول دعوته، كما طمع في الاستقلال ببلاد اليمن بعد أن استقرت له الأمور في كثير من أرجائها، وخلع طاعة عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي في بلاد المغرب، فبعث إليه ابن حوشب رسالة يعاتبه فيها ويذكره بما كان من رعاية محمد الحبيب لهما، وقيامه

(١) الهماني: سيرة جعفر الحليج ص ١١٥.

بأمرهما وقال له: «كيف تخلع طياعة من لم تفل خيراً إلا به، وتترك الدعاء له، أو ما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود^(١)؛ فلم يعبأ ابن الفضل بقوله وكتب إليه: «إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها^(٢)».

لم يكتف ابن الفضل بخروجه على عبيد الله المهدي، بل ثار أيضاً على ابن حوشب طمعاً في استخلاص بلاد اليمن لنفسه، قاعد جيشاً كبيراً لمحاربتة؛ ودار بين الفريقين قتال عنيف، ولما اشتدت وطأته على ابن حوشب، أرسل إلى علي بن الفضل في طلب الصلح، فاشتراط أن يبعث إليه أحد أبنائه ليكون ذلك طليلاً على دخوله في طياعته، فلجأه ابن حوشب إلى طلبه وأرسل إليه ولده، فأقبله ابن الفضل عنده ستة ثم رده إليه^(٣).

لم يؤد هذا الصلح إلى عودة الوفاق بين ابن حوشب وعلي بن الفضل سيرته الأولى، بل ظل كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر، مما ساعد على إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن، كما أن عبيد الله المهدي رغم حرصه على بسط سيادته على تلك البلاد لم يوجه اهتمامه إلى وضع حد لهذا النزاع الذي قام بين ابن حوشب وعلي بن الفضل، بل تركهما وشأنهما، ولعل انشغاله بتوطيد دعائم خلافته في بلاد المغرب هو الذي حمله على الانصراف عنهما.

ظل ابن حوشب حريصاً على ولائه لعبيد الله المهدي حتى توفي

(١) ابن المؤيد اليمني: انباء الزمن في اخبار اليمن ورقة ٣١.

(٢) الحمادي اليمني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢.

(٣) الحمادي اليمني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٥-٢٦.

سنة ٣٠٢ هـ. أما على بن الفضل فإنه منذ خلع طاعة عبيد الله المهدي لم يعدل عن خطته في العمل على الاستئثار بالنفوذ في بلاد اليمن مما أثار ضده السنين وأنصار المهدي، ولم يتمكن في النهاية من التغلب على هذين الفريقين والانفراد بالزعامة في بلاد اليمن؛ وبذلك لم تتحقق مطامعه، بل فشل في تكوين حزب قوى يكون عوناً له على نشر دعوته، فلما توفي سنة ٣٠٣ هـ لم يجد ابنه الذي ولى الأمر من بعده أنصاراً أقوياء يدرءون عنه خطر السنين في بلاد اليمن، فتعرض لهجومهم، ووقع إخوته أسرى في أيديهم، وما زالوا يقتبعون أعوانه حتى قضوا عليهم^(١).

ظل للدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن أنصار كثيرون بفضل ما بذله ابن حوشب من مجهود في سبيل نشرها، وبلغ من اهتمامه بأمرها أن أوصى قبيل وفاته سنة ٣٠٢ هـ كلا من ابنه أبي الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاوري بأن يستمرا في إقامة الدعوة لعبيد الله المهدي وأهل بيته؛ وقال في وصيته: «قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحفظاه ولا تقطعا دعوة بنى عبيد.. فنحن غرس من غرسهم، ولولا ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم لنا في الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم، وأوصيكما بطاعة المهدي.. حتى يرد أمره بولاية أحدكما ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه^(٢)».

(١) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ - ٣٩.

(٢) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٩.

كان عبد الله بن عباس الشاوري يطمع في الاستقلال بأمر الدعوة في بلاد اليمن، فكتب إلى عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب يخبره بوفاة ابن حوشب، كما أبلغه أنه يقوم بأمر الدعوة له وسأله الولاية وعزل ولد ابن حوشب^(١). ولما كان أبو الحسن ولد ابن حوشب يرى أحقيته في أن يخلف أباه في القيام بأمر تلك الدعوة، لذلك رحل إلى بلاد المغرب، حيث قابل المهدي وطلب منه أن يقلده محل أبيه، ورجاه ألا ينزع هذا الأمر من إخوته، غير أن المهدي لم يجبه إلى طلبه لأنه أقر قبيل قدومه عليه عبد الله بن عباس الشاوري في القيام بأمر دعوته؛ فعاد أبو الحسن إلى بلاد اليمن دون أن تتحقق رغبته^(٢).

وليس من شك في أن عبيد الله المهدي أثبت بتدخله في تولية عبد الله بن عباس الشاوري إلى الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وإقصائه أولاد ابن حوشب عنها ما كان يتمتع به من نفوذ في بلاد اليمن، كما أنه حرص على اختيار من يثق به ليكون عوناً له على نشر دعوته في تلك البلاد، وخاصة بعد أن ضعف أمرها من جراء النزاع الذي قام بين كل من علي بن الفضل وابن حوشب.

على أن تولية عبد الله بن عباس الشاوري أمر الدعوة الفاطمية في اليمن لم تلق ارتياحاً من نفس أبي الحسن ولد ابن حوشب على الرغم مما أظهره ابن عباس الشاوري من شعور طيب نحوه ونحو أخويه جعفر

(١) البهاء الجندی: اخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في طبقات الموالی والملوک ص ١٥٠.

(٢) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

وأبى الفضل وإكرامه إياهم وترحيبه بمقابلتهم فى أى وقت شاءوا دون أن يعترضهم حجاب^(١).

وقد أدى حرمان أبى الحسن من رئاسة الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن إلى إضماره السوء والعداوة لابن عباس الشاورى الذى قبح رأيه وزجره وقال له «أنت تعلم أنه غرس أبينا وأنه لا يقدم علينا سوانا فى هذا الأمر»، فأجابه بقوله: «والله لا تركته يتنعم فى ملك عنى به غيره؛ ونحن أحق به منه»، فقال له أخوه جعفر: «إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا وتفترق هذه الدعوة ويذهب الناموس الذى نمسناه^(٢) على الناس، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك»، فلم يلتفت أبو الحسن إلى قوله أخيه جعفر وعول على التخلص من ابن عباس، وما لبث أن قتله غدراً وولى الأمر من بعده^(٣).

لم يعمل أبو الحسن بعد أن تقلد ما كان يليه أبوه ابن حوشب على نشر الدعوة الفاطمية، بل انقلب معاديا لها، حريصا على القضاء عليها بعد أن كان من أنصارها، فارتد عن المذهب الإسماعيلى واعتنق مذهب أهل السنة، وجمع العشائر وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه، فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة^(٤).

(١) البهاء الجندى: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك وطبقات الموالى والملوك ص ١٥١.

(٢) نمس السر: كتمه، ونمس بين القوم أفسد وأغرى (حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب عبید الله المهدي حاشية رقم ٢ ص ٢٢٨).

(٣) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

(٤) البهاء الجندى: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥١.

كان لخروج أبى الحسن على الدعوة الفاطمية أسوأ الأثر فى نفس أخيه جعفر الذى عارضه فى سياسته وقبح رأيه وقال له: «قطعت يدك بيدك»، فلم يكثرث بقوله، وخرج جعفر من بلاد اليمن مغاضباً له وقصد بلاد المغرب رغبة منه فى الاتصال بعبيد الله المهدي وإخباره بمناهضة أخيه للدعوة الفاطمية، فوجده قد توفى وخلفه ابنه القائم سنة ٢٢٢هـ؛ فأقام عنده.

مضى أبو الحسن فى سياسته التى اختطها لنفسه والتى كان من أثرها أن فرقت بينه وبين أخيه جعفر، دون أن ينظر إلى عاقبتها الوخيمة عليه فأخذ يتتبع أنصار أبيه من الإسماعيلية تتبعاً مقروناً بالشدة والعسف، أدى إلى تفرقهم وقتل الكثيرين منهم؛ غير أن بعض الإسماعيلية فى اليمن استطاعوا النجاة من اضطهادهم، كما حرصوا على كتمان أمرهم حتى لا يتعرضوا لإيذائه ولولا عليهم رجلاً منهم - وكان لا ينقطع عن مكاتبة الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب -^(١) مما يثبت لنا أن الدعوة الفاطمية لم يقض عليها فى بلاد اليمن، وأنه لم يزل لها أنصار يرجون سيادتها على الرغم مما لاقوه من عنت واضطهاد.

لم يجن أبو الحسن ثمرة مناهضة الدعوة الإسماعيلية وخروجه على طاعة الخلافة الفاطمية، فإنه فضلاً عن انقسام أهل بيته وما ترتب عليه من انصراف كثير من أنصاره عنه، لم يلق من أنصاره الجدد من السننيين تأييداً يكون عوناً له على نجاح هذا الانقلاب الذى أحدثه، بل شكوا فى إخلاصه رغم ارتدادهم عن المذهب الإسماعيلي، وتآمره عليه

(١) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

وقتلوه، وتتبع السنيون من أهالى بلاد اليمن الغربية أولاده وحريمه، فقتلوا الصغير منهم والكبير وسبوا حريمهم، وبذلك قضوا على أسرة ابن حوشب^(١).

لما توفى أبو الحسن، طمع إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى - وكان من كبار الإسماعيلية فى بلاد اليمن - فى أن يتقلد ما كان يليه من البلاد، فأعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلى وأقام الخطبة لبنى العباس^(٢). ولم يزل يتتبع الإسماعيلية ويقتلهم حتى قضى على الكثيرين منهم، وما لبث أن اجتمع شمل الفريق الذى نجا من هذا الاضطهاد بناحية جبل مسور جنوبى صنعاء تحت زعامة ابن الطفيل^(٣). ولما وصل إلى إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى نبأ تزعمه الإسماعيلية باليمن خرج إليه وقتله، فتفرق من بقى من أصحابه وقصدت جماعة منهم نواحي عمان^(٤).

اتخذت طائفة الإسماعيلية باليمن بعد وفاة ابن الطفيل، ابن رحيم رئيساً لها ويعرف أيضاً بابن جفتم^(٥)، وكان كثير التنقل، لا يستقر فى موضع واحد خوفاً من تعقب السنيين له - ولم يصرفه ذلك عن مكاتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى منذ قدم من بلاد المغرب إلى مصر، واتخذ القاهرة حاضرة له، وأظهر له فى كتبه دخوله فى طاعته، كما

(١) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.

(٢) البهاء الجندى: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

(٣) العرشى: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤.

(٤) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.

(٥) الديبع الشيبانى: قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٦.

حرص على أن ينهى إليه وإلى الخليفة العزيز بالله الفاطمي من بعده أخبار أهل اليمن^(١). ولم يزل على ولائه لهذا الخليفة حتى شعر بدنو أجله، فاستخلف على أتباعه من الإسماعيلية رجلاً منهم يقال له يوسف بن الأسد^(٢).

لم يكن دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن هم الذين أقاموا الدعوة وحدهم للخليفة العزيز بالله الفاطمي، بل أقامها أيضاً أمير صنعاء عبد الله بن قحطان بن أبي يعفر سنة ٣٧٩هـ، وكان أمراء بني يعفر قد استعادوا هذه المدينة بعد وفاة علي بن الفضل سنة ٣٠٣هـ، وضموا إلى حوزتهم بعض البلاد المجاورة لها، وأقاموا فيها الخطبة للخليفة العباسي، فلما استقرت الأمور لعبد الله بن قحطان في صنعاء، تجهز لفتح تهامة وأوقع الهزيمة بأميرها أبي الجيش إسحق بن إبراهيم بن زياد، ثم دخل زبيد حاضرة بني زياد واستولى عليها وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسي في جميع البلاد التي تحت سيطرته وإقامتها للخليفة العزيز بالله الفاطمي، واستمر الحال على ذلك حتى توفي سنة ٣٨٧هـ^(٣).

هكذا أتيح للدعوة الفاطمية أن تستعيد مكانتها في بلاد اليمن بعد أن لاقى دعائها كثيراً من العنت والاضطهاد على يد السنيين. كما أخذت الدعوة العباسية في تلك البلاد في الضعف والانحلال تبعاً لنشاط دعاة الإسماعيلية وانصراف أمراء اليمن - الذين كانوا يدينون بالطاعة لبني العباس - إلى التنافس والتناحر فيما بينهم مما أدى ببعضهم إلى إحلال اسم

(١) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١ - ٤٢.

(٢) البهاء الجندی: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

(٣) الديبع الشيباني: قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٧.

ال خليفة الفاطمي في الخطبة محل الخليفة العباسي، وليس من شك في أن هذا العمل مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمي ببلاد اليمن.

كان دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن لا يألون جهداً في القيام بنشر الدعوة للخلفاء الفاطميين، فظل يوسف بن الأسد يدعو سراً للخليفة الحاكم بأمر الله حتى توفي، فخلفه داع جريء يدعى عامر بن عبد الله الزواحي - كان كثير المال والجاه، وقد استغل ماله ونفوذه في سبيل نشر الدعوة الفاطمية، واستمال عدداً كبيراً من أهالي اليمن إلى المذهب الإسماعيلي، وظل يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل أيام المستنصر^(١). ولما حضرته الوفاة استخلف على بن محمد الصليحي^(٢) الذي نشأ فقيهاً صالحاً، وصار دليلاً لحاج اليمن عدة سنين، وما لبث أن عظمت شهرته وذاع بين الناس أنه سيمتلك اليمن بأكمله. ولما حج سنة ٤٢٨ هـ، اجتمع بفريق من قومه همدان ودعاهم إلى نصرته ومؤازرته في دعوته، فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلاً من رجالات عشيرته^(٣).

وجه على بن محمد الصليحي اهتمامه بعد عودته من بلاد الحجاز إلى اليمن سنة ٤٢٨ هـ إلى إحياء الدعوة الإسماعيلية القديمة التي قلده عامر بن عبد الله الزواحي زمامها، فأخذ في إظهارها واتخذ حصن مسار بجبل حراز مقراً له وما زال يستميل الناس حتى اجتمع إليه من سنجان وهمدان وحمير خلق كثير^(٤).

(١) البهاء الجندی: أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

(٢) عرف بالصليحي نسبة إلى الأصلوح من بلاد حراز باليمن.

العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٤

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٨.

(٤) العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٤.

لم تكن الأمور ممهدة لعلی بن محمد الصليحي ليقوم بنشر دعوته في جميع أرجاء اليمن؛ فعلى الرغم من زوال دولة بنی زياد سنة ٤٠٩ هـ، فقد ورث ملكهم مواليتهم الذين ساروا على سياستهم في إقامة الخطبة لبنی العباس، وكان من بين هؤلاء الموالی نجاح الذي تمكن من إقامة دولة سنية في زبيد خلفت دولة بنی زياد. وقد تمتع نجاح بكثير من مظاهر الاستقلال في دولته، فصار يركب بالمظلة كغيره من السلاطين ويسك العملة باسمه، وبلغ من ازدياد نفوذه أن فوض إليه الخليفة العباسي تقليد القضاء لمن هو أهل له، كما عهد إليه بالنظر في شئون البلاد اليمنية ولقبه بالمؤيد نصر الدين^(١).

كانت دولة نجاح السنية تعمل على قمع أي محاولة يقوم بها دعاة الإسماعيلية لنشر دعوتهم في بلاد اليمن، لهذا لم يستطع على بن الصليحي رغم تأييده خلافة المستنصر بالله الفاطمي أن يجهر بالدعوة له، يقول بامخرمة^(٢): «وكان الصليحي يدعو للمستنصر بن معد بن الظاهر العبيدي سراً ويخاف نجاحاً».

وقد عمد الصليحي إلى مداراة نجاح وأظهر له أنه يدين بالطاعة له، كما أخذ يتودد إليه ليأمن جانبه، ثم دبر مؤامرة للتخلص منه؛ فأهدى إليه جارية سنة ٤٢٥ هـ، دست له السم فمات^(٣)، وخلفه من أولاده سعيد

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١١-١٢، ابن الجاور: تاريخ ابن الجاور ورقة ٨٦.

(٢) المختار في تاريخ ثغر عدن ورقة ١٢٧.

(٣) ابن خلسون: ج ٤ ص ٢١٤.

الأحوال وجياش؛ غير أنهما لم يستطيعا أن يقفا في وجه الصليحي طويلاً وهربا إلى دهلك^(١)؛ وبذلك قضى الصليحي على دولة نجاح وضم زبيد إلى حوزته.

لما قوى أمر الصليحي وتوطد نفوذه في بلاد اليمن التي احتلها، كتب إلى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٥٢ هـ يستأذنه في إظهار دعوته، كما بعث إليه هدية ثمينة، تشمل سبعين سيفاً، مقايضها من عقيق وخمسة أثواب وشي وفصوص عقيق ومسك وعنبر، فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات، كتب عليها الألقاب وعهد إليه بالولاية، وأذن له في نشر الدعوة^(٢).

علت مكانة الصليحي في بلاد اليمن بفضل تأييد المستنصر له، وأخذ يوجه اهتمامه إلى توسيع رقعة بلاده؛ فسار إلى التهام فافتتحها، ولم تمض سنة ٤٥٥ هـ إلا وقد بسط سلطانه على بلاد اليمن واتخذ صنعاء مقراً له^(٣)، وفي ذلك يقول العرشي^(٤)؛ (ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي بن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن، سهله وجبله، وشماله وجنوبه، وغربه وشرقه، في المدة اليسيرة، وقهر ملوكه).

استطاع الصليحي بعد أن اتسعت رقعة دولته وقضى على منافئيه

(١) القهزبي: خطط ج ٢ ص ١٧٢.

دهلك: جزيرة في بحر اليمن (ياقوت: معجم البلدان).

(٢) الديبع الشيباني: قرعة العيون في تاريخ اليمن اليموني ورقة ٢١.

(٣) عمارة اليمن: تاريخ اليمن ص ١٨.

(٤) بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٥.

أن يعيد للدعوة الإسماعيلية مكانتها في بلاد اليمن - وكانت قد وهنت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم، وصارت الخطبة تقام على منابر تلك البلاد للمستنصر والصلحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وزالت بذلك دولة بني العباس من بلاد اليمن^(١).

لما استقرت الأمور للصلحي في صنعاء دعا إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه وولى صهره أسعد بن شهاب زبيد وأعمالها تهامة - وكان قد أقسم ألا يوليها إلا لمن قدم إليه مائة ألف دينار - ثم ندم على يمينه؛ فلما حملت إليه زوجته أسماء هذا المبلغ ليوافق على تعيين أخيها أسعد، قال لها الصليحي: يا موليتنا، أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» فتبسّم وهو موقن أنه من خزانته. وبعد أن أعيد إليه المبلغ، قال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا» فقالت: «ونمير أهلنا ونحفظ أخواننا»، فلقب الصليحي أسعد بن شهاب على ولاية زبيد سنة ٤٥٦ هـ. وكان حسن السيرة، فلم يسي إلى رعاياه وعلى الأخص السفنيين، وبلغ من تسامحه معهم أن أجاز لهم إظهار مذاهبهم^(٢).

كان الصليحي يحكم بلاد اليمن على اعتبار أنه نائب عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وحرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر. وقد تبودلت بين الصليحي والمستنصر بالله الفاطمي عدة مراسلات تبين لنا ما كان بينهما من صلة وثيقة، ففي شهر

(١) بامخرمه: المختار من ثغر عن ورقة ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٩.

صفر سنة ٤٥٢ هـ. أرسل المستنصر كتاباً إلى الصليحي أخبره فيه بمولد ابنه أحمد الملقب بأبى القاسم وطلب منه إذاعة هذا النبأ فى جميع أنحاء دولته^(١)، كما بعث إليه خطاباً آخر فى رمضان سنة ٤٥٥ هـ، وصف فيه ثورة ابن باديس بإفريقية وكيف تمكن من القضاء عليها وأعاد بلادها إلى حوزته. ويتبين لنا من هذا الخطاب الأخير مدى اهتمام المستنصر بإخبار الصليحي نائبه وداعيته فى بلاد اليمن بالأحداث التى تقع فى دولته.

كان المستنصر يثق بالصليحي ويطمئن إليه فى نشر دعوته ليس فقط فى بلاد اليمن، بل أيضاً فى بلاد الحجاز، فعهد إليه بإقرار الأمور فى مكة وأبدى له فى رسالة بعثها إليه سنة ٤٥٦ هـ. ارتياحه للخدمات الجليلة التى قام بها فى سبيل إقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه فى بلاد اليمن والحجاز، وأنعم عليه بلقب عمدة الخلافة^(٢).

كان الصليحي يريد السفر إلى مصر ليحظى بمقابلة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى؛ فبعث إليه رسالة مع مبعوثه لك بن مالك ليأذن له بالقدوم عليه، فأذن له الخليفة فى خطاب أرسله إليه فى جمادى آخر سنة ٤٥٩ هـ^(٣) غير أن الصليحي رأى أن يذهب أولاً إلى مكة

(١) (B.O.S.), Vol VII, Part2, Letters of Al-Mustansir (حسين الهمدانى). p.313.

(٢) (B.S.O.S.), Vol, VII, Part2, 1934. p.312-313.

(٣) (B.S.O.S.). 1934 Vol VII part2, p.312.

(٤) (B.S.O.S.) 1934 Vol VII Part2, p.309.

لأداء فريضة الحج، واستخلف ابنه المكرم أحمد بصنعاء، واستصحب معه أمراء اليمن خوفاً من تأمرهم على ولده وإقصائه عن الملك، كما أخذ بصحبته زوجته أسماء بنت شهاب وبعض أفراد أسرته، وبينما هو في طريقه إلى مكة اغتاله سعيد الأحول بن نجاح في أواخر سنة ٤٥٩هـ^(١).

ولى المكرم أحمد الملك في بلاد اليمن بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحي وبعث إليه الخليفة المستنصر بالله رسالة في شهر شعبان سنة ٤٦٠هـ عبر فيها عن أسفه لوفاة والده وعهد إليه بشئون الدعوة^(٢).

عول المكرم بعد أن تقلد زمام الأمور في بلاد اليمن على التخلص من سعيد الأحول بن نجاح الذي كان إذ ذاك قد استولى على زبيد، فسار إليه على رأس جيش كبير. ولم تزل المعركة دائرة بين الفريقين حتى هرب سعيد ومن معه إلى دهلك. واستعاد بذلك المكرم سلطانه على زبيد وولى عليها خاله أسعد بن شهاب. على أن بنى نجاح ما لبثوا أن عادوا إلى زبيد فأوقع بهم المكرم الهزيمة وأخرجهم منها وقتل سعيد ابن نجاح. وبعد أن تغلب المكرم على الصعوبات التي واجهته، أمر بضرب الدينار الملكي ونقش عليه هذه العبارة: «الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين»^(٣).

لما وصل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي نبأ الهزيمة التي حلت

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٢٢، ابن المؤيد اليمني: أنباء الزمن في أخبار اليمن ص ٤٠.

(٢) (B. S. O), 1934 Vol VII Part 2, p.319.

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٢٦-٢٧.

بسعيد الأحول بن نجاح وقتله، أرسل إلى المكرم خطاباً نوه فيه عن سروره لهزيمة العدو وأخذه الثار لأبيه وقال له: «فلكه درك أيها الأجل، لقد زكى غرسك وطاب، وحق أمل أمير المؤمنين فى تقديم قدمك وما خاب، فاعلم أنك خليفته فى بلاد اليمن وعماده، وعدته وسناده وقر عيناً بما أعطاك الله من الرتبة السنية والدرجة العلية»، وأبلغه فى نهاية خطابه أنه أنعم عليه بلقب أمير الأمراء^(١).

لم يكن لدى المكرم الصفات التى تؤهله ليخلف أباه فى إدارة شئون بلاد اليمن لذلك نراه بعد أن استعاد زبيد من سعيد الأحول وعاد إلى صنعاء يقلد زوجته السيدة الحرة بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي زمام الأمور فى اليمن، ويعهد إليها بالقيام بأمر الدعوة الإسماعيلية، أما هو فقد انصرف إلى التمتع بملاذ الحياة^(٢).

على أن المكرم رغم ذلك حرص على توطيد علاقته بالمستنصر بالله الفاطمى، فظل موالياً له، وعبر عن ذلك فى كتبه التى بعثها إليه، كما أن الخليفة الفاطمى لم يهمل شأنه وأولى زوجته السيدة الحرة كل ثقته لإخلاصها للدعوة الإسماعيلية وظلت كتبه لا تنقطع عنهما، فبعث إلى المكرم كتاباً فى ٢٩ من ذى القعدة سنة ٤٧٠هـ تضمن وصفاً للمركز السامى الذى تقلده بدر الجمالى فى دولته والخدمات العظيمة التى أداها له باعتباره إماماً، وكيف وطد نفوذ خلافته،

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٦٠ ص ١٩٦-١٩٩

(B. S. O. S.). 1934, Vol VII Part 2, p.323

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٢٩.

فقال: «قد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رميما ونضر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما، لم يكن لأمر المؤمنين بد من أن يرقيه في الرفع والإعلاء فوق الفراق، ويحله منه محل الوالد، ويجعل له مقام الملك وينزله في عقد خلافة الإمامة مكان السلك، فنص عليه في كفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين، نص حق ونقلها منه إلى محق مستحق إذا كان مبرزاً في ميدانها، ناطقاً بلسانها عالماً بأحكامها، وطلب المستنصر من المكرم في نهاية كتابه أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته، فقال: «قول وجهك نحو هذا السيد الأجل واجعله قبلة دينك في مصادرك ومواردك، وارجع إليه فيما عراك من مشكلات الدين، واشتبه عليك من فتاوى المؤمنين، ليرسل إليك من علمه شهاباً قبساً، ويضرب لك في بحر ما اشتبه عليك طريقاً يبساً، واعلم أن الدولة الفاطمية بخدمة وجده واجتهاده أطلع الله شمسها فأصبحت من سماء العز في الكبد، وشق في نصرتها غياهب الظلمات بعد ضعف الناصر وقلة العدد...»^(١).

ومما لا شك فيه أن بدر الجمالي الذي قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وزارة السيف والقلم كان يتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير في مصر، فقد عهد إليه الخليفة إدارة كافة شئون دولته وزاد في ألقابه: «السيد الأجل، أمير الجيوش، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين»، ومن ثم صارت كلمته نافذة على القضاة والدعاة وسائر موظفي الدولة^(٢). ولما كانت

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٢٤ ص ١٠٦-١٠٩.

(B. S. O. S.) 1934. vol VII Part, 2 p. 317-318.

(٢) المقرئ: خطط ج ١ ص ٢٨٢.

سلطة بدر الجمالي قد امتدت تبعا لذلك إلى الولايات الخاضعة لنفوذ الخلافة الفاطمية، لذلك رأى المستنصر أن يبعث إلى القائمين بأمر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن يخبرهم بتقلد بدر الجمالي زمام دعوته، فأرسل إلى السيدة الحرة خطاباً أشاد فيه بذكر هذا الوزير وقال: «فهو خليفتنا وباب دعوتنا، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس، وهو عليك شفيق ولمصالح حالكم سالك في كل طريق» وختم خطابه بقوله: «فاعلمى ذلك وسارعى إليه إن شاء الله تعالى»^(١).

كان المكرم قبل وفاته قد أوصى أن يخلفه في الدعوة ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علي الصليحي، فلما توفى سنة ٤٨٤ هـ، أرسلت السيدة الحرة خطاباً إلى المستنصر بالله الفاطمي تخبره بوفاة زوجها المكرم وترجوه أن يوافق على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه - وكان لا يزال طفلاً - فأقر الخليفة تعيينه خلفاً لأبيه وعهد إليه بالقيام بشئون الدعوة، وأمر أن تعنون جميع المراسلات الصادرة منه إلى بلاد اليمن باسم عبد المستنصر^(٢)، كما أرسل خطابات أخرى مع رسوله عضد الدين أبي الحسن جوهر المستنصري، أحدها إلى السيدة الحرة يعزيها في وفاة زوجها المكرم ويثني على وفائها للدعوة.

على أن تولية عبد المستنصر أمر الدعوة لم يلق قبولا لدى أمراء اليمن بسبب صغر سنه، يؤيد ذلك هذا الخطاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي إلى عبد المستنصر وقد وصفه فيه بأنه «سليل الدعوة ونجلها»

(١) (B. S. O. S.) 1934. vol VII Part, 2 p312.

(٢) (B. S. O. S.) 1934. vol VII Part, 2 p316.

ونوه بما لأسلافه من فضل السابقة في التعلق بها وحسن الأثر في نشرها، وقال إنه قلده «الدعوة الهادية في سائر أعمال اليمن وما يليها سهلاً ووعراً وبراً وبحراً»، وتحدث في نهاية خطابه عما وصله عن اعتراض البعض على تقليده الدعوة بسبب صغر سنه، بقوله: «وبعد هذا، فقد كان أمير المؤمنين عرف بما أمده الله به من التأييد الخفي، والنظر الأملح، أنه إذا شوهده ما خلص إليه من شريف هذا الاهتمام والتقديم والكمال والإنعام... سترمقك العيون وتجول في عظيم ما خصصت به الظنون، إذا وليت هذا الأمر العالی قدره وأنت في سن الصبا، فأنكر أمير المؤمنين ذلك عليهم... ووجد على من ظن ذلك موجدته على من قدح في الدين...، لأن الله تعالى فوض إلى أمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين...، وقد جاز هذا في الإمامة وهي الدرجة التي تلي النبوة، فكيف الدعوة التي لأمر المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوضها إلى من يرتضيه ويختاره^(١)...».

كان الخليفة المستنصر بالله الفاطمي يحرص على استقرار الأمور في بلاد اليمن ليضمن بذلك الاحتفاظ بسيادته على تلك البلاد، فلما قام النزاع بين الداعي أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان بن الأمير الزواحي على أثر تولية عبد المستنصر رئاسة الدعوة، بعث رسالة إلى السيدة الحرة قال فيها إنه ينظر إلى هذا النزاع بشئ من القلق وطلب إليها أن تسعى في الصلح بينهما.

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٢٧ ص ١٢٢-١٢٨.

كذلك أرسل المستنصر كتاباً فى ربيع الأول سنة ٤٨٠هـ إلى الصليحيين وآل الزواحى رجاهم فيه أن ينهوا ما بينهم من خلاف وأن يطيعوا السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر، وناشدهم مناشدة قوية لكى يتحدوا فى سبيل نشر الدعوة، وعبر فى خطابه عن ارتياحه للخدمات التى قام بها كل من الصليحي والمكرم والسيدة الحرة لنجاح دعوته^(١).

وقد جاء فيه^(٢): «من عبد الله ووليه، معد أبى تميم، الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى كافة السلاطين الصليحيين والزواحيين، والمشايخ الحجازيين، وطوائف الميامين.. أما بعد، فإن الله شرف أمير المؤمنين بفضل الخلافة على بريته، وأناف به محل الدعوة الهادية ومرتبته.. ولما عرف أمير المؤمنين ما كان منكم من النصرة من حميد المساعى ومأثور مواقفكم من حماية الدعوة...، شكر لكم هذه المناقب، وأمير المؤمنين يأمركم بالجرى على هذه السنن... وأن تعتمدوا الائتلاف، والتحذير من عواقب المقاطعة والاختلاف... (وأمير المؤمنين) يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأوحى، المنصور، العادل، المكرم، عمدة الخلافة... سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه عبد المستنصر...، ويأمركم أن تعتمدوا الجد والتشمير فى متابعتة ومناصرته... والجهاد تحت رايته...، وأن تخلصوا النيات فى موافقة وطاعة والدته: الحرة، الملكة، السيدة السديدة...، ولية

(١) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2 p. 318-319

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٢٨ ص ١٢٨ - ١٢٤.

أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين.. التي استكفاهها أمير المؤمنين في تدبير أمره...^(١)

لقيت الدعوة التي وجهها المستنصر إلى آل الصليحي وآل الزواحي لفض النزاع بينهم قبولاً، وقد وافته بهذا النبأ السيدة الحرة في خطاب أرسلته إليه، فبعث إليها الخليفة رداً أعلن فيه سروره لزوال الخلاف الذي قام بين سبأ بن أحمد الصليحي وسليمان بن الأمير الزواحي وعقد الصلح بينهما^(٢).

لم يعمر عبد المستنصر طويلاً، فقد وافته المنية ونشب بعد وفاته نزاع بين الداعي سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة بسبب طموحه إلى الاستحواذ على رئاسة الدعوة وحكم بلاد اليمن ورغبته في التزوج منها، لكن السيدة الحرة كرهت ذلك وأنكرته؛ وتهيأ كل منهما للقتال، وبعد أن دارت الحرب بينهما أياماً أرسل سليمان بن عامر الزواحي إلى الداعي سبأ بن أحمد يقول له: «والله لا أجبتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله^(٣)»، فبعث سبأ بن أحمد إلى المستنصر بالله رسولين هما: القاضي حسين بن إسماعيل الأصبهاني وأبو عبد الله الطيب ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة أن يطلب من السيدة الحرة التزوج منه^(٤)، فكتب إليها المستنصر خطاباً أمرها فيه بالتزوج من الداعي سبأ بن أحمد، وسير إليها أستاذاً من قبله يلقب بيمين الدعوة ليتحدث معها في هذا الشأن^(٥).

(١) (B. S. O. S.), 1934, vol VII Part 9 d.321.

(٢) الديبع الشيباني: قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٣٢.

(٤) ابن المؤيد اليمنى: أنباء الزمن في أخبار اليمن ص ٤٣.

لما حظى رسول المستنصر بمقابلة السيدة الحرة وقف بين وزرائها وكتابها ورجال دولتها وقال موجه الكلام إليها: «أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستنجدين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، ويقول فيها: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً). وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحّد المنصور المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف والطاف وطيب وكساوى. فقالت السيدة الحرة: «أما كتاب مولاي فأقول فيه إني ألقى إلى كتاب كريم^١ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (ألا تعلوا على وأتوني مسلمين)، ولا أقول في أمر مولانا: (يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)، وأما أنت يا ابن الأصهباني^(٢) فوالله ما جئت إلى مولانا من سبأ بنياً يقين، ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون^(٣)». ثم تقدم إليها وزيرها

(١) وهو أحد الرسولين اللذين بعثهما الداعي سبأ بن أحمد إلى الخليفة المستنصر.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ ص ٣٢-٣٣.

زريع بن أبي الفتح والقاضي الحسين بن إسماعيل الأصبهاني وبعض رجال دولتها وأخذوا يحسنون لها الزوج من الداعي سبأ بن أحمد، وما زالوا يلحون عليها في الرجاء حتى قبلت عقد الزواج تحقيقاً لرغبة الخليفة^(١).

يتبين لنا من تدخل المستنصر بالله الفاطمي في مسألة زواج الداعي سبأ بن أحمد من السيدة الحرة إلى أي حد علت مكانة هذا الخليفة بين أمراء اليمن ودعاتها حتى أصبحت كلمته نافذة عليهم، ليس فقط في المسائل السياسية والدينية بل في المسائل الخاصة، وقد سبق له أن أبدى رغبته في وضع حد للنزاع بين آل الصليحي وآل الزواحي، وها هو يأمر السيدة الحرة بالزوج من الداعي سبأ بن أحمد، ولاشك أنه كان يرجو من وراء هذا الزواج توثيق الصلة بين أمراء اليمن ودعاتها وعدم إثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا تتعرض الدعوة للضعف من جراء تفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنازعات التي قد تؤدي في النهاية إلى زوال نفوذهم.

على أن السيدة الحرة لم تمكن زوجها الداعي سبأ بن أحمد من السيطرة على شئون بلاد اليمن، بل استحوذت عليها واستأثرت بالسلطة دونه، وظلت موالية للمستنصر وآل بيته وتوثقت عرى الصداقة بينها وبينهم، وأكبر دليل على ذلك الرسائل التي تبودلت بين السيدة الحرة والمستنصر، وبينها وبين والده هذا الخليفة وأخته مما يثبت لنا ثقتهم بقدرتها على إقرار الأمور في بلاد اليمن وإذاعة الدعوة بين ربوعها، بل بلغ من ثقة المستنصر بكفايتها للقيام بشئون الدعوة الفاطمية أن

(١) الديبع الشيباني: قرعة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

عهد إليها أمر تنظيمها في بلاد الهند وعمان، كما أجاز لها أن تعين من يقع اختيارها عليه من الدعاة لنشر الدعوة في تلك البلاد^(١).

لم يكن لمظاهر الضعف التي أصابت الخلافة الفاطمية في أواخر عهد المستنصر أى أثر في بلاد اليمن، فظلت السيدة الحرة مخلصه في ولائها لهذا الخليفة رغم ما بلغها عن تقلص نفوذه.

لما توفى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلي بالله أيدت السيدة الحرة خلافته، كما أيدها دعاة اليمن رغم أن الإسماعيلية في مصر لم يجمعوا على أحقيته في تقلد عرش الخلافة بعد أبيه، ذلك أن الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستنصر أقدم بعد وفاة هذا الخليفة على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد بعد أن اجتمع بالأمراء وخوفهم مما يصيبهم من نزار إذا ما ولى الحكم في الدولة الفاطمية، وقد ترتب على إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها خروج أهالي الإسكندرية على طاعة الخليفة الجديد وانحيازهم إلى نزار، غير أن الأفضل ما لبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره في ثورته^(٢).

أرسل المستعلي إلى السيدة الحرة رسالة مؤرخة في ٨ صفر سنة ٤٨٩هـ. تضمنت وصفا لثورة نزار وتغلب وزيره الأفضل بن بدر الجمالي عليها نهائيا^(٣)، ومما ورد فيها^(٤): «من عبد الله ووليه أحمد أبى القاسم

(١) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2 p.321

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٣٥-٣٧.

(٣) (B. S. O. S.) 1934, Vol VII Part 2 p.218.

(٤) السجلات المستنصرية رقم ٤٢ ص ١٤٥-١٥١.

الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة، الملكة، السيدة، السيدة... ولية أمير المؤمنين... قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته، وذلك بالنص الذي كان من مولانا الإمام المستنصر بالله.. وإن البيعة انتظمت لأمر المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليه، السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين... وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخل في البيعة مسارعاً وانقاد لأحكامها طائعا... ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سناً.. ثم إن الشيطان استزله واستغواه... ففارق جناب أمير المؤمنين... وسار منه متوغلاً في القفار، راكباً الأخطار حتى وصل إلى الإسكندرية، وفيها أفتكين- أحد ممالك السيد الأجل، أمير الجيوش... فقابل هذا العبد العاق... نعم مواليه بالكفر، وأظهر ما كان كامناً في نفسه من الخيانة والغدر، ووافق نزاراً على ما سعى إليه من الفساد... فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين.. بأن يكاتبهم معذراً وزاجراً... وهم على غلوائهم متمادون... إلى أن حملهم العدوان.. على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيغ الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان... وأمير المؤمنين يمدّه بصائب الآراء... فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال، وأحل بجمعهم قوارع الشتات والنكال... ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر... أذن أمير المؤمنين

لفتاه السيد الأجل باتباعهم... فتوجه يقتص آثارهم... وحمى بين
 الفريقين وطيس الهيجاء... وكان المخازيل فى هذه النوبة قد تجمعوا
 من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، فرمى
 الله جمعهم بالحتف العاجل... وطار نزار وأفتكين على رسميهما فى
 الفرار... وكان الفتح فى هذه الواقعة مثل ما تقدمه بحملات وأصلها
 السيد الأجل بنفسه وغلمانه... فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن
 سترتهم الظلماء... وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة.... وتوجه نحوهم..
 حتى نزل على البلدة... فحصرها براً وبحراً.. وحضر شهر الصوم،
 فأخر مناجرتهم حفظاً لحرمة الشهر الشريف.... فلما انقضى (هذا
 الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيهم.. رماهم بحجارة المنجنيقات...
 فلم تمض إلا أيام قلائل حتى تداعى الحصن من سائر أركانه، فتهاوت
 الرجال متسامنين وبالعفو لا ئذيين... فخرج (أفتكين) بغير عهد ولا
 عقد يتعلق به، ووقف بين يدى مولاه ملتحفاً ثوب الذل والهوان...
 فأضرب عنه صفحاً... وتوفر على المهم من الحوطة على نزار، وحفظ
 القفر من عوادي النهب والأضرار....

كذلك حاولت والددة الخليفة المستعلى جذب الدعاة فى اليمن إليه
 فبعثت إلى السيدة الحرة رسالة، تحدثت فيها عن عهد المستنصر
 لولدها أبى القاسم أحمد وثورة نزار وأفتكين بالإسكندرية على
 خلافته^(١) وقد جاء فيها^(٢):

(١) (B. S. O. S), 1934. Vol VII, Part 2, p.218

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٢٥. ص ١٠٩-١١٧.

«من السيدة الملكة الكريمة... والددة الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله... إلى الحرة الملكة السيدة، السديدة... قد اشتهر بين كافة المؤمنين، وأولياء الدين، ورعايا الدولة أجمعين. أن الإمام المستنصر بالله... كان يشير (بالإمامة) إلى ولده الإمام المستعلي بالله، ثم أقصحه... وأنه تولى بنفسه الشريفة الكريمة توفيقه وتفهمه، واختصه دون الأولياء بمزية إلفه وأنسه، ثم انتقل إلى دار الكرامة، ومحل الإقامة، بعد أن أظهر النص عليه، وأعلن بنقل الأمر إليه... وجعل خليله ووزيره، السيد الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام... ولياً أعلى الله همته في ارتياد الصلاح واغتنامه... ومديراً أجرى به أمر المملكة على أطراده وانتظامه، فقام لأمير المؤمنين بأمر البيعة أحسن قيام... وكان أول داخل فيها الأمراء إخوة أمير المؤمنين تسليمًا لحقه وإذعاناً. وعلماً بأن الله تعالى يفيض شعار الإمامة على من يرتضيه... ومن جملتهم نزار أخوه الأكبر سنناً، فإنه عرف الحق فعاهد وبايع... ثم أدركه الحسد... فأنسل ذليلاً تحت جناح الليل... ومضى إلى الإسكندرية وبها أفتكين... واجتمعاً معاً على الفتنة... واستغوي طوائف من المنافقين... وكان أمير المؤمنين بما آتاه الله تعالى من شرف العلم، وحبب إليه من الفضل والحلم، موعزاً إلى فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل، بمواصلتهم بالمكاتبات المشتمة على الإنذار والإعذار... وهم متمادون على غلوائهم في البغي والعناد... فعند ذلك أنن له مولانا في لقائهم».

لم يتأثر دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن بهذا النزاع الذي حدث في مصر حول الخلافة والذي ترتب عليه ظهور فرقتين، عرفت الأولى بالنزارية، وكانت تدعى أن المستنصر أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده أما الفرقة الثانية فادعت أنه أوصى بها لابنه المستعلى وقد انحاز دعاة الإسماعيلية في اليمن إلى هذه الفرقة وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى.

كذلك لم تلق فرقة النزارية التي اتخذت من بلاد المشرق مركزاً لها بزعامة الحسن بن الصباح^(١) - الذي مال إلى القول بإمامة نزار وأنكر إمامة المستعلى - أنصاراً في بلاد اليمن، بل لقد أصبح اسم نزار مبغضاً عند أهالي هذه البلاد كما هي الحال عند غالبية الإسماعيلية في مصر.

كان النزارية في مصر لا يعترفون بإمامة المستعلى ويعملون على التخلص منه ومن وزيره الأفضل، ولم يمتد نشاطهم إلى البلاد الواقعة في دائرة النفوذ الفاطمي، أما فرقة المستعلية التي اتخذت مصر مقراً لها فنشطت في بث الدعوة لإمامة المستعلى وظهر أثر نشاطها جلياً في بلاد اليمن حيث قام الدعاة بنشر الدعوة لهذا الخليفة، ولم تر السيدة الحرة التي كانت تتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير في بلاد اليمن في الخلاف الذي ظهر بين الإسماعيلية في مصر عقب وفاة المستنصر بشأن أحقية المستعلى في الإمامة ما يجعلها تتخذ لنفسها سياسة مستقلة عن الدولة الفاطمية، بل دخلت في طاعة هذا الخليفة بعد أن وقفت على عوامل ثورة نزار ونجاح الأفضل بن بدر الجمالي في القضاء عليها.

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥ .

ولاشك أن تأييد السيدة الحرة ودعاتها الخليفة المستعلي ساعد على عدم تسرب النزارية إلى بلاد اليمن، وبذلك لم تتفرق كلمة الإسماعيلية في تلك البلاد كما تفرقت في مصر.

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية في اليمن. فلما مات زوجها الداعي سبأ بن أحمد سنة ٤٩٢ هـ. ولت المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري داعياً مكانه^(١)، كما عهدت إليه بمعاونتها في القيام بأمور الدولة، وقد ثار في عهده جماعة من الفقهاء بحصن التعكر^(٢) وبايعوا رجلاً منهم يعرف بإبراهيم بن زيدان على الدعوة الإسماعيلية وانحازت إليهم قبيلة خولان، غير أن المفضل ما لبث أن حاصرهم وانتهى الأمر بالقضاء على ثورتهم^(٣).

كان من أثر انضمام الخولانيين إلى الخارجيين على الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن سنة ٥٠٤ هـ وقيام النزاع بينهم وبين السيدة الحرة أن وجهت الخلافة الفاطمية بالقاهرة اهتماماً إلى معاونتها السيدة الحرة، فأوفد إليها الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي الداعي على بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ ليكون عوناً لها ضد أعدائها ومنافسيها^(٤) - وكان ذا دراية كبيرة بمذهب الشيعة - فلما وصل إلى جزيرة دهلك في طريقه إلى بلاد اليمن، قابله أحد الدعاة وأدلى إليه بأخبار تلك البلاد وأحوال أهاليها

(١) الديبع الشيباني: قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

(٢) قلعة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذي جبلة (ياقوت: معجم البلدان)

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ٢١٦، ٢٢٢.

(٤) Enc. of Islam, v. 4, p.517

وتواريخ ميلادهم وأسمائهم وما يميزهم من علامات، فكان إذا ما تحدث معهم عن غوامض الأشياء التي تتصل بهم اعتقدوا أنه يعلم الغيب^(١).

اشترك ابن نجيب الدولة مع السيدة الحرة في إدارة شئون بلاد اليمن. وصار من كبار الدعاة في تلك البلاد، كما ظل مخلصاً للسيدة الحرة ومنفذاً في الوقت نفسه لسياسة الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وبذل جهداً مشكوراً في العمل على استقرار الأمور في بلاد اليمن. ولما ولى المأمون البطائحي الوزارة في مصر في عهد الخليفة الأمر، أمده بالمال والرجال ليضعف من شوكة أمراء اليمن الذين حاولوا الاستقلال ببعض البلاد^(٢).

أثارت الحملات التي شنّها ابن نجيب الدولة على بعض أمراء اليمن والتي انتهى الأمر فيها بهزيمتهم حقدهم عليه، وصاروا ينتهزون الفرص للتخلص منه، فلما بعث المأمون البطائحي وزير الخليفة الأمر الفاطمي رسولا من قبله إلى اليمن سنة ٥٢٠ هـ لم يحفل به ابن نجيب الدولة وعول على الغض من شأنه، فاستغل أعداؤه من الأمراء والدعاة موقفه العدائي من رسول الوزير الفاطمي للانتقام منه، فاستمالوا هذا الرسول إليهم بالهدايا وانضموا إليه في عدائه لابن نجيب الدولة، فأوعز إليهم بتدبير أمرين للتخلص منه: أما عن أولهما فقال: «اكتبوا على يدي إلى مولانا الأمر كتباً تذكرون فيها أنه دعاكم إلى نزار وراودكم

(١) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ٤٢.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٤٣ - ٤٤ ، الديبع الشيباني: قرة العيون في تاريخ اليمن

على ذلك فامتنعتم»، وقال عن ثانيهما: «اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها إلى مولانا الأمر بأحكام الله»، فأجابوه إلى طلبه، وبعث بكتبهم وبالسكة إلى الخليفة الأمر^(١).

لما وصل إلى الأمر الفاطمي الكتب والسكة وفيها ما يدل على انصراف ابن نجيب الدولة عن الدعوة له وانحيازه إلى طائفة النزارية^(٢) عهد إلى

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٤٦.

(٢) كان للنزارية أتباع في مصر لا يعترفون بإمامة الأمر ويثيرون القلاقل ضده بإيعاز من رؤساء دعوتهم في قلعة الموت الذين كانوا يمدونهم بالمال؛ فرأى الخليفة الفاطمي أن يرسل إلى زعيمهم الحسن بن الصباح كتاباً يفند فيه حجج فرقته التي تقول بأحقية نزار في الإمامة ودعا إلى قصره قبل أن يرسل كتابه، الفقهاء من الإسماعيلية والإمامية وقال لهم وزيره المأمون البطائحي: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجيين على الإسماعيلية؛ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله.

وكانت أخت نزار إذ ذاك تجلس في قاعة صغيرة بجانب الديوان بالقصر وعلى الباب ستر؛ فلما فرغ فقهاء الإسماعيلية من الإدلاء برأيهم في أقوال الخارجيين على الخليفة قالت: «اشهدوا على يا جماعة الحاضرين وبلغوا عنى جماعة المسلمين أن أخى شقيقى نزارا لم يكن له إمامة وإننى (برية) من إمامته جاحدة لها لا عنة لمن يعتقدونها...».

ولما انقضى المجلس، عهد المأمون البطائحي إلى ابن الصيرفى بكتابة رسالة لابن الصباح يدحض فيها آراء النزارية في الإمامة؛ غير أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد ابن الصباح لعدول رسل الخليفة عن مواصلة السفر إليه بسبب الأنباء التي وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق، واتصالها بأتباعها في مصر لتدبير مؤامرة لقتل الأمر ووزيره المأمون. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأمر يتبع حركاتهم في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه ويعمل على التخلص ممن تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم، لكنه رغم اتخاذه الحيطة لدرء خطرهم عنه اغتاله فريق منهم.

ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٦٥-٦٨، المقرئى: خطط ج ١ ص ٤٠٧.

الأمير الموفق بن الخياط بالقبض عليه وإرساله إلى مصر؛ فقدم ابن الخياط على السيدة الحرة وطلب منها أن تسلم إليه ابن نجيب الدولة تحقيقاً لرغبة الخليفة، فامتنعت أول الأمر وقالت له: «أنت حامل كتاب مولانا فخذ جوابه»، وبعثت إلى الأمر بأحكام الله هدية وكتاباً مع رسولها محمد بن الأزدي شفعت فيه لابن نجيب الدولة، غير أن شفاعته السيدة الحرة لم تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمي، فقد أحاط أعداء نجيب الدولة^(١) به واعتقلوه وأرسلوه إلى مصر، وأخروا رسول السيدة الحرة خمسة عشر يوماً حتى لا يعلم الخليفة بحقيقة موقف ابن نجيب الدولة منه. ولم يكتفوا بذلك، بل أوعزوا إلى ربان المركب الذي أبحر عليه هذا الرسول أن يفرقه في الماء؛ فلبى رغبتهم ومات محمد ابن الأزدي غريقاً قبل أن يواصل سفره إلى مصر فجزعت السيدة الحرة على وفاته، كما أسفت على فقد ابن نجيب الدولة - وكان نصيراً لها ومن أكابر دعاة اليمن - وقد قتل بأمر الخليفة الأمر، على أثر قدومه إلى القاهرة سنة ٥٢١ هـ^(٢)، فأقامت مكانه الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي^(٣).

كانت السيدة الحرة على اتصال وثيق بالخليفة الأمر، فتبودلت بينهما الكتب والرسائل. وقد أظهرت ولاءها لهذا الخليفة، فاعترفت بإمامته، كما اعترفت من قبل بإمامة أبيه المستعلي وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن.

وكان الخليفة الأمر ينظر إلى السيدة الحرة نظرة تقدير وإجلال

(١) ابن المؤيد اليمني: أنباء الزمن في تاريخ اليمن ص ٤٧

(٢) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٤٧، ٤٨، ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٧٠

(٣) Kay, yaman, Its Early Mediaeval History p.298.

ويرى أنها من خيرة أعوانه بعد أن تبين له إخلاصها في نشر دعوته؛ لذلك حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده؛ فلما رزق ابنه أبا القاسم الطيب في ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ وجعله ولي عهده، كتب إلى السيدة يبشرها بمولد ولده الإمام أبا القاسم الطيب ويعرفها أنه ولي عهده ويأمرها أن تذيب هذا الخبر بين أهالي بلاد اليمن؛ وفيما يلي نص السجل الذي أرسله الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي إلى الملكة الحرة الصليحية في هذا الشأن^(١): (بسم الله الرحمن الرحيم): من عبد الله ووليه المنصور أبا على الأمر بأحكام أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خاصة الإمام، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستنجدين، عصمة المسترشدين، وولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها ونعمتها وأحسن توفيقها ومعونتها.. سلام عليك، فإن أمير المؤمنين بحمد الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن

(١) ذكر (ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٧٢) كيف احتفل الخليفة الأمر بإعلان البشرية بولاية ابنه أبا القاسم الطيب وتوليته الإمامة من بعده فقال: «زينت مصر والقاهرة وعملت الملاهي في الأسواق وبابواب القصور، ولبست العساكر وزينت القصور. وأخرج الأمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغاً ما بين آلات وأواني ذهب وفضة فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوماً وأحضر الكهش الذي يذبح في العقبة وعليه جل ديباج وقلائد فضة وذهب بحضرة الأمر وأحضر المولود، فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله ونثرت الدنانير على رؤوس الناس وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقلوبية بإحضار الفواكه، فأحضرت وملئ القصر من الفواكه وغيرها وامتلاً الجو بدخان العود والعنبر».

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٠٠-١٠١

يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين الأئمة المهتدين وسلم تسليماً، أما بعد فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا تحصى لها عد، ولا تقف عند أمد ولا حد ولا تنتهى إلى الإحاطة بها الظنون لكونها كالسحاب الذى كلما انقضى سحاب أعقبها سحاب، فهى كالشمس الساطعة الإشراق الدائمة الانتظام والاتساق والغيوث المتتابعة الاتصال الموالية بالغدو والأصال، ومن أشرفها لديه قدراً وأعظمها صيتاً وذكرها وأسنها جلالاً وفخراً الموهبة بما جدده الآن بأن رزقه مولوداً مرضياً براً تقياً، وذلك فى الليلة المصباحية بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ؛ ارتاحت إلى طيب ذكره أسرة المنابر وتطلعت إلى مواهبه آمال كل باد وحاضر. وأضاءت بأنوار عزمه وبهجة طلعتة ظلم الدياجر، وانتظمت به للدولة الزاهرة الفاطمية عقود المفاضل والمفاخر، استخرجه من سلالة النبوة كما يستخرج النور من النور. ومنح المؤمنين منه بما قدح زناد السرور وشماء الطيب لطيب عنصره وكناه أبا القاسم كنية جده نبي الهدى المستخرج جوهره من جوهره؛ وأمير المؤمنين يشكر الله تعالى على ما من به من إطلاعه كوكبا منيراً فى سماء دولته وشهاباً مضيئاً فى فلك جلالته، ورفعته شكراً يقتضى باستدامة نعمته .. ويسأل أن يبلغه فيه كنه الآمال ويصل به حبل الإمامة ما اتصلت الأيام بالليالى. ويجعله عصمة للمسترشدين وحجة على الجاحدين وعونا للمنتجين وسعادة للعارفين لتتال الدنيا بسعادته أوفى حظوظها وقسمها،...، ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين ومحلك الذى امتنع عن المائل والقرين، أبشرك هذه البشرى الجليل قدرها، العظيم فخرها،

المنتشر صيتها وذكرها لتأخذى من المسرة بها بأوفى نصيب وتذيعها فيمن قبلك من الأولياء والمستجيبين إذاعة يتساوى في المعرفة بها كل بعيد منها وقريب؛ لينظم بها عقد السرور ، فاعلمى هذا واعلمى به إن شاء الله تعالى وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله والأئمة الطاهرين وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين»

لما قتل الخليفة الأمر في أواخر سنة ٥٢٤ هـ، انتقلت السلطة إلى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر فأخفى أمر الامام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلاً لحمل منتظر^(١) ولقب الحافظ لدين الله، لكن سرعان ما حيل بينه وبين التصرف في شئون الدولة، فقد سجنه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل ، وظل في سجنه إلى أن قتل هذا الوزير ، فأعاده رجال الدولة ولياً للعهد^(٢)، ثم استقرت له الخلافة وقرئ في ربيع الآخر ٥٢٦ هـ سجل بإمامته، وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذه العبارة: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين^(٣).

لم تنظر السيدة الحرة إلى الوسيلة التي اتبعها الخليفة الحافظ للوصول إلى عرش الخلافة بعين الرضا، فقد اعتبرت إمامته باطلة على الرغم من

(١) يتضح مما أورده كل من ابن ميسر (تاريخ مصر ص ٧٤)، أبو الحسن (النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٢٤٠، ٢١٤) أن الأمر لما مات ترك إحدى نسائه حاملاً، فأقيم الحافظ ولياً للعهد وكفيلاً لطفل مرتقب .

(٢) المقرئى: خطط، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٧٤-٧٥.

الكتب التى أرسلها إليها؛ فقد بعث إليها على أثر توليته الحكم سجلا بداه بعبارة «من ولى عهد المسلمين»، ثم أرسل إليها سجلا آخر فى السنة التالية مبتدئا بعبارة «من أمير المؤمنين» وقد حاول الحافظ فى كتبه التى بعثها إلى السيدة الحرة أن يستميلها إليه، لكنه أخفق فى ذلك لأنها كانت على علم بمولد الإمام الطيب وأخذت على نفسها العهد بنشر الدعوة له؛ ولهذا تخلت عن الدعوة للخليفة الحافظ وقالت «حسب بنى الصليحي ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب»^(١).

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على أن يكون للدعوة الطيبية فى بلاد اليمن النفوذ الأسمى وامتد نشاطها فى سبيل الإبقاء على تلك الدعوة إلى بلاد الحجاز، ذلك أنه حين وصل إليها أن أمير مكة هاشم ابن فليته بن القاسم^(٢) (٥٢٧-٥٤٩هـ) يقيم الخطبة للخليفة الحافظ بعثت إليه تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة لهذا الخليفة^(٣)؛ ولاشك أنها كانت تأمل من وراء ذلك أن يحذو الأمير حذوها فى إقامة الدعوة للإمام الطيب.

لقى عدم اعتراف السيدة الحرة بإمامة الخليفة الحافظ ارتياحا من فرقة المستعلية بمصر التى كانت ترى وجوب انحصار الامامة فى أولاد المستعلى، بل إن هذه الفرقة نظرت إلى السيدة الحرة على أنها الممثلة الحقيقية للمذهب الإسماعيلى فى بلاد اليمن.

على أن الخليفة الحافظ لم يفقد الأمل فى نشر الدعوة له فى بعض

(١) عمارة اليمنى: تاريخ ص ١٠٢

(٢) صحح هذا الاسم طبقا لما أورده (Zambaur, Manuel de Genealogie et de Chronologie

pour L'Histoire de L'Iaam p.21

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٤

مدن اليمن، فقد استعان بآل زريع بعدن في بث دعوته وكان لجدهم عباس بن المكرم^(١) مآثر طيبة في نشر الدعوة للمستنصر بالله الفاطمي مع الداعي علي بن محمد الصليحي ثم مع ابنه أحمد المكرم^(٢).

ولى العباس بن المكرم وأخوه مسعود ولاية عدن من قبل السيدة الحرة، وظلا يحملان إليها كل سنة مائة ألف دينار. ولما توفى العباس انتقل عمله إلى ابنه زريع، وخلف مسعود ابنه أبو الغارات، وقد خرج كل من زريع وأبو الغارات على طاعة السيدة الحرة، فحاربهما وزيرها المفضل بن أبي البركات، ثم تصالحا معه على أن يؤديا للسيدة الحرة نصف خراج عدن؛ غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا، وظل آل زريع يناضلون السيدة الحرة حتى تخلصوا من نفوذها في عدن^(٣).

عنى دعاة آل زريع بإقامة الدعوة للخليفة الحافظ. كما حرص هذا الخليفة على تقليدهم أمر دعوته، فبعث في سنة ٤٣٥ هـ رسالة مع أحد رسله تتضمن تقليد علي بن سبا بن أبي السعود بن زريع الدعوة؛ ولما علم

(١) كان بنو معن بن زائدة قد ملكوا عدن أيام الخليفة المأمون العباسي ورفضوا الدخول في طاعة بني زياد بزبيد واكتفوا بإقامة الخطبة للخليفة العباسي. ولما استولى الداعي علي بن الصليحي على بلاد اليمن رعى لهم حق العروبة وأبقاها في أيديهم. وقرر عليهم ضريبة سنوية، ولم يزالوا بها حتى أخرجهم منها ابنه المكرم أحمد وولى عليها العباس ومسعود ابني المكرم الهمداني.

تاريخ ابن المجاور: القسم الأول ورقة ٩٩، العرشى: بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٧.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٤٨، تاريخ ابن المجاور: القسم الأول ورقة ٩٨

(٣) تاريخ ابن المجاور: القسم الأول ورقة ٩٩

الرسول أن هذا الرجل قدتوفى قلدها أخاه محمد بن سبأ^(١) ولقب بالداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين^(٢). وبلغ من اهتمام الخليفة الحافظ بإقامة الدعوة أن أرسل فى سنة ٥٣٩هـ رسولا من قبله إلى بلاد اليمن يدعى أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى الأسوانى ليقوم بنشر دعوته^(٣).

كان من أثر قيام السيدة الحرة بالدعوة للإمام الطيب دون الخليفة الحافظ وانفراد آل زريع بالدعوة لهذا الخليفة أن انقسمت إسماعيلية اليمن تبعاً لذلك إلى طائفتين: إحداهما تؤيد الدعوة الطيبية وعلى رأسها السيدة الحرة، والأخرى تناصر الخليفة الحافظ يتزعمها آل زريع.

على أن الدعوة الطيبية مالبثت أن ضعف أمرها بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٣٢هـ ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلف هذه السيدة وتسير سيرتها فى نشر الدعوة للإمام الطيب؛ فقد زال ملكهم وآلت الحصون والذخائر والأموال التى كانت تحت السيدة الحرة إلى منصور بن المفضل بن أبى البركات الذى عجز عن الاحتفاظ بما انتقل إليه من ملك.

تطلع آل زريع بعد أن توفيت السيدة الحرة إلى بسط سلطانهم على قلاع الصليحيين الذين زالت دولتهم؛ فاستغل الداعى محمد بن سبأ الزريعى ضعف المنصور بن المفضل بن أبى البركات الذى آلت إليه

(١) ابن المؤيد اليمنى: أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ص ٤٧

(٢) ابن خلدون: نجاة ص ٢١٩

(٣) الأذفرى: الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ص ٥.

هذه القلاع وابتاعها منه بمائة ألف دينار في سنة ٥٤٧ هـ^(١)؛ فقوى نفوذهم تبعاً لذلك، وظلوا موالين للخلافة الفاطمية في مصر، يؤدي إليها في كل سنة مبلغاً معيناً من المال للإنفاق منه على المذهب الإسماعيلي^(٢).

أخذت دولة بني زريع بعدن في الانحلال بعد وفاة محمد بن سبأ الزريعي سنة ٥٤٨ هـ؛ وتجلى ضعفها في عهد ابنه عمران الذي استعان بياسر بن بلال في تدبير أمور دولته واستمر على ولائه للفاطميين إلى أن توفي سنة ٥٦٠ هـ، فاستأثر ياسر بالسلطة^(٣). وزال بذلك ملك بني زريع.

أصبح النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن مهدداً بالزوال منذ ولي صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور في مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، فقد طمع في بسط سلطانه على البلاد التي كانت تحت السيادة الفاطمية وولى وجهه في بادئ الأمر نحو اليمن^(٤)، فبعث إليها أخاه الأمير شمس الدولة توران شاه على رأس حملة سنة ٥٠٩ هـ. ولما وصل توران شاه إلى تلك البلاد بدأ عمله بالقضاء على دولة بني مهدي بزبيد التي كانت تناصر الفاطميين بمصر^(٥)، فقبض على أميرها

(١) المقرئزي: خطط ج ٢ ص ١٧٤

(٢) تاريخ ابن الجاور: القسم الثاني ورقة ١٠٣

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ٢٤٩.

(٤) ذكر المقرئزي السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٢، ٥٣، أنه من الأسباب

التي حملت صلاح الدين على فتح بلاد اليمن رغبته في إقامة دولة بها يلجأ إليها إذا ما حاول نور الدين محمود أن ينزع منه مصر.

(٥) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٩

عبد النبي بن مهدى لقطعه الخطبة العباسية واستولى على زبيد، ثم فتح صنعاء وسار إلى عدن حيث أوقع الهزيمة بواليتها ياسر بن بلال وضمها إلى حوزته. ولما فرغ من أمرها عاد إلى زبيد وأمتلك قلعة تعز- وهي من أحصن القلاع- ولم يزل يتقدم في فتوحه حتى بسط سلطانه على معظم بلاد اليمن^(١)، وتلقب بالملك المعظم وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي في جميع البلاد التي فتحها^(٢). وولى سيف الدولة مبارك بن منقذ على زبيد، وعز الدين عثمان بن الزنجبيلي على عدن، كما عين في كل قلعة من قلاع اليمن التي دخلت في حوزته نائبا من أصحابه^(٣)، ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧١هـ.

وهكذا قضى على الدعوة الفاطمية ببلاد اليمن، كما زال نفوذ الفاطميين منها وانتقلت السيادة في تلك البلاد إلى الأيوبيين الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين وأقاموا الخطبة لهم في جميع البلاد التي تحت سيطرتهم.

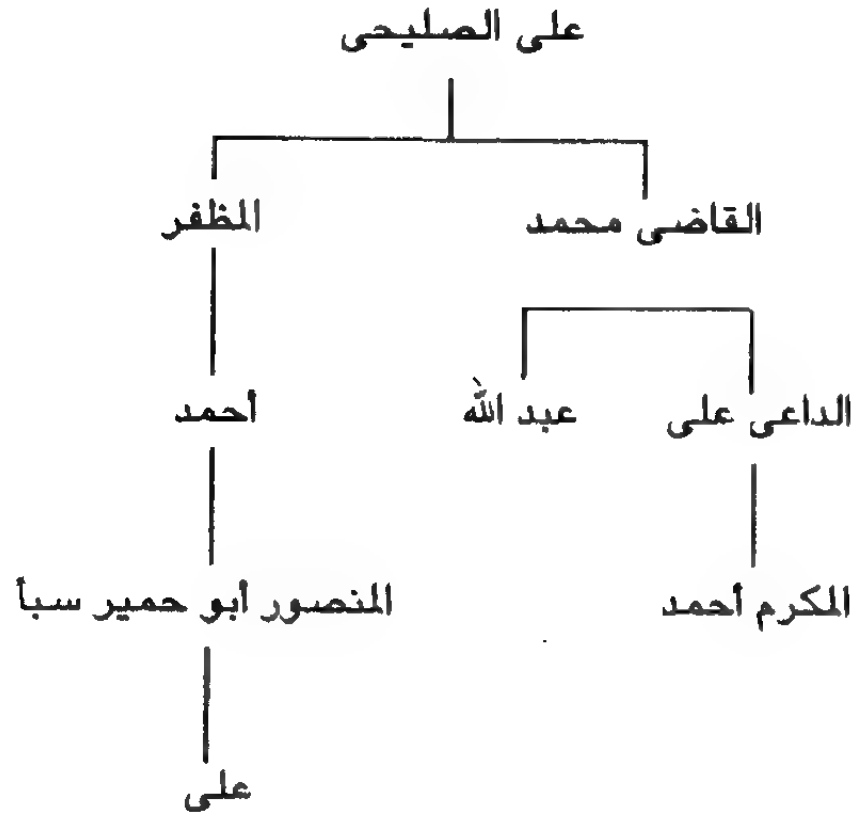
(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٨-١٤٩، المقرئ: خطط ج ٢ ص ١٧٣

(٢) المقرئ: السلوك لمعرفة نول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٢

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٩

(٤) العرشى: بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٤١

أسرة الصليحي ببلاد اليمن^(١)



مصادر الكتاب

- ١- ابن الأثير: (ت ٦٣٠هـ، ١٢٢٨م) على بن أحمد بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري.
«الكامل في التاريخ» ١٢ جزءا
- ٢- أحمد أمين:
«ظهر الإسلام» الجزء الأول (القاهرة ١٩٤٥)
- ٣- الأدقوى: (ت ٧٤٨هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدقوى الشافعى
«الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد»
- ٤- بامخرمة: أبو محمد عبد الله بن أحمد الطيب بامخرمة
«المختار في تاريخ ثغر عدن» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة).
- ٥- البهاء الجندى: (٧٣٢هـ، ١٣٣١م) أبو عبد الله بهاء الدين بن يوسف بن يعقوب الجندى.
«أخبار القرامطة باليمن» المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك
- ٦- ابن الجوزى: (ت ٦٥٤هـ، ١٢٥٧م) شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلى المعروف بسبط بن الجوزى «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ).
- ٧- حسن إبراهيم حسن: (دكتور)
(١) «الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (القاهرة ١٩٣٢م)
- ٨- (ب) « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى»
(الجزء الثالث - القاهرة ١٩٤٦م)

- ٩- حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف
«كتاب عبید الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية
في بلاد المغرب» (القاهرة ١٩٤٧م)
- ١٠- ابن حزم: (ت ٤٥٦هـ، ١٠٦٤م) أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم
ابن غالب بن صالح الأندلسي الظاهري «جمهرة أنساب العرب» (تحقيق
وتعليق إ. ليفي. بروفنسال - القاهرة ١٩٤٨)
- ١١- الحمادي اليماني: محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني (من
فقهاء السنة في أواسط القرن الخامس الهجري) «كشف أسرار الباطنية
وأخبار القرامطة».
- ١٢- ابن خلدون: (ت ٨٠٨هـ، ١٤٠٥-١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد «العبر
و ديوان المبتدأ والخبر» - ٧ أجزاء - (بولاق ١٢٨٤هـ)
- ١٣- ابن خلكان: (ت ٦٨١هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم
ابن بكر الشافعي. «وفيات الأعيان» - جزءان - (بولاق ١٢٨٢هـ)
- ١٤- دحلان: (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زيني دحلان المكي «خلاصة الكلام في أمراء
البيت الحرام»
- ١٥- الديبع الشيباني: (ت ٩٤٤هـ) الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن
محمد الشيباني الشافعي المشهور بالديبع الزبيدي «قرة العيون في تاريخ
اليمن الميمون» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة) .
- ١٦- عبد العزيز الدوري: «دراسات في العصور العباسية المتأخرة» (بغداد
١٩٤٥م) .
- ١٧- عبد القادر الأنصاري: (الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن
إبراهيم الأنصاري) . (من علماء القرن العاشر الهجري) «درر الفرائد
المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» (مخطوط بدار الكتب المصرية
بالقاهرة) .

- ١٨- العرشى: القاضى حسين بن أحمد العرشى الزيدى- (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) « بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام » (نشر الأب أنستاس مارى الكرملى) .
- ١٩- عمارة اليمنى: (ت ٥٦٩ هـ ، ١١٧٤ م) أبو محمد بن أبى الحسن على بن زيدان أحمد الحكيم اليمنى الملقب بنجم الدين « تاريخ اليمن » (نشر Henri cassels Kay)
- ٢٠- عمارة اليمنى: « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » (نشر Hart-wing derenbouty)
- ٢١- أبو الفداء: (ت ٧٣٢ هـ ، ١٢٣١ م) إسماعيل بن على عماد الدين « المختصر فى أخبار البشر » (٤ أجزاء) .
- ٢٢- القلقشندى: (ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد « أصبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » (١٤ جزءاً) .
- ٢٣- ابن المؤيد اليمنى: (يحيى بن الحسين) « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ١٣٤٧)
- ٢٤- ابن المجاور: (ت ٦٩٠ هـ) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى « تاريخ ابن المجاور » (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٥٣٤٢)
- ٢٥- أبو المحاسن: (ت ٨٧٤ هـ ، ١٣٥٤ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
- ٢٦- المقدسى: (ت ٣٨٨ هـ ، ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى المعروف بالبشارى .
- « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (المكتبة الجغرافية العربية - المجلد الثالث) (طبعة دى غويه . ليدن ١٩٠٦ م) .

- ٢٧- المقرئزي: (٨٤٥هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على، السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر الدكتور زيادة).
- ٢٨- المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).
- ٢٩- المقرئزي: اتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (نشر الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨م).
- ٣٠- ابن ميسر: (٦٧٧هـ، ١٢٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب، تاريخ مصر (طبعة هنري ماسيه Henri Masse القاهرة ١٩١٩م).
- ٣١- النويري: (ت ٧٢٢هـ، ١٢٢٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٤٩).
- ٣٢- ياقوت: (ت ٦٣٦هـ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي، معجم البلدان، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦م).
- ٣٣- اليماني: محمد بن محمد، سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدي من سلمية ووصوله إلى سلجماسه (نشر إيفانوف. مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ديسمبر ١٩٣٦).
- ٣٤- السجلات المستنصرية. سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرها (نشر وتحقيق دكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤).
- ٣٥- مجموعة الوثائق الفاطمية (المجلد الأول) (جمعها وحققها دكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٥٨).

36- Al- Hamdani, (Husain)

Letters of Al- mustansir Billah." Billetin of the School of Oriental Stutlies, vo. VII. part21934.

37- De goeje.: "Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides" leyden, 6188).

38. Lvanow,:

"The Rise of Fatimids"

39. Kay (Henri Cassele):

"Yaman. Its Early mediaeval History"

40. Lane-poole, (stanley):

"AHistory of Egypt in the Middle Ages"

41.Meiz (Adam):

"Die rentaissance des Islams"

(نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة تحت عنوان

«الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» - القاهرة ١٩٤٠-١٩٤١).

42.O'Leary, (De Lacy):

"Ashort history of the fatimid Khalifatwe".

43. Weit, (Gaston):

"Hiatoire de la nation Egyptienne, vol LV"(L'E gypt e Arabe.)

44. Zambaur, (E,D.):

"Manuel de genalogie et de Chronologie pour L'historire de L'lam".

45. Encyclopaedia of Islam.

46. Encyclopacdis of religion and Ethics.